٢٥٤

HARLEQUIN

روايات احلام

أين ضاعت ابتسامتي؟

كارول مورتيمر

www.elromancia.com
مرمورية

أين ضاعت ابتسامتي؟

لن تدع بيث أحداً يبكيها مرة أخرى! ولن تدع نصيحة أمها تقنعها: «أفضل طريقة للتغلب على علاقة فاشلة هي الوقوع في حب جديد»!

لكن ماذا لو كان لإصرار ماكس غريفين على ملاحقتها وايقاعها في شباكه أهداف أخرى؟ ماذا لو كان يعرف عن ماضيها الأليم أكثر بكثير مما تظن؟ ماذا لو كانت تقع، بالرغم عنها، في فخ جديد صممه صيّاد ماهر لا يثنيه شيء عن بلوغ هدفه؟

١ ـ غريب لجوج

كانت تظن أنها لن تبكي مرة أخرى، وكانت مقتنعة فعلاً أن ذلك لن يحصلِ معها. ولكن لا يمكنها لها أن تخطىء في تفسير الدموع الساخنة التي بلّلت خديها، فيما كانت تجلس بمفردها في الظلمة.

ـ مشهد رائع، أليس كذلك؟

التفت بيث نحو مصدر الصوت، يخالجها من جهة الاحساس بالدهشة لأنها ميّزت في الصوت الذي سمعته اللكنة الانكليزية، تلك اللهجة التي لم تسمع غير القليل منها، منذ وصولها إلى مدينة فيرونا الإيطالية، قبل يومين. ومن جهة أخرى الإحساس بالامتعاض من هذا الرجل الذي شاء أن يتكلم معها.. هل تبدو له مثال الانكليزية السهلة المنال، خاصة أنها وحيدة.

لقد شاهدت الكثير من النساء الإيطاليات، ولكن أيّاً منهن لا تملك لون شعرها الأشقر وبياض بشرتها. فهي لم تمضِ إلاّ القليل من الوقت في إيطاليا لكي تلّوحها أشعة الشمس بالاسمرار... أما بالنسبة إلى الوحدة، فمن الواضح أنها هنا بمفردها، جالسة على طرف صف مقاعد، كما كان واضحاً أن الزوجين اللّذين يجلسان إلى جانبها ويتبادلان أطراف حديث حميم، ألمانيا الجنسية. ومع ذلك، استاءت بيث من تطفل هذا الرجل عليها خلال العرض الرائع والنادر

الذي كانت تستمتع به، لذا رمقت الرجل الجالس خلفها مباشرة داخل المدرج الروماني المعروف بالـ «أرينا»، بنظرة امتعاض.

بيد أن هذا الرجل يبدو مختلفاً جداً عن رجال هذا البلد بملامحهم اللاتينية وشعرهم الأسود، أو، على الأقل، عن أولئك الإيطاليين الذين وقع نظرها عليهم خلال تلك العطلة. لقد لاحظت أن الرجال الإيطاليين لديهم اعتداد بالنفس يصل إلى درجة العجرفة، ويبدو أن ذلك يأتيهم بالفطرة. أما هذا الرجل، فيظهر اعتداده بنفسه عن غير عمد وأكثر هدوءاً، وهذا ما يجعله أشد تأثيراً.

لاحظت شعره الداكن القصير والمسرّح نحو الخلف، وقسمات وجهه المنحوتة بصلابة. لا يمكن لأي شيء أن يحول النظر عنه غير عينيه الرماديتين اللتين تنمان في أعماقهما عن الذكاء المفرط والمعرفة. وهما بذلك تختلفان عن العيون الرمادية المألوفة التي لا تعبّر إلاّ عن القساوة.

بدا هذا الرجل ضخماً، حتى وهو جالسٌ. وهذا شيء آخر يميزه عن الرجال الإيطاليين. وبرزت عضلات صدره العريض، والقوي وبشرة ذراعيه المكتسية بالشعر والملوحة بالاسمرار.

قالت بيث في سرها وهي تشعر باضطراب مألوف، إنه رجل يجب أن تأخذ حذرها منه.

سألها عندما اضطرت للوقوف لتفسح الطريق أمام الزوجين الالمانيين اللّذين غادرا مقعديهما:

ـ هل ترغبين بتناول كأس من الشراب؟

كان الجميع من حولها يتداخلون بعضهم ببعض مثل قطيع الغنم ـ داخل المسرح المكشوف.

كانت أمها قد أوعزت إليها وألحت عليها حتى اقتنعت: «اذهبي لقضاء العطلة في ايطاليا، وحاولي أن تروحي عن نفسك، وتنسي

عذابك، واستمتعي بفرصة العمر... انسي كل ما عدا ذلك!».

دفعها التأثر بأوبرا عايدة إلى البكاء للمرة الأولى منذ عدة شهور واستغربت كيف توصل هذا العرض إلى تحقيق هذا النجاح الكبير.

كان آلاف الأشخاص الموجودين في المسرح، يعتبرون أنفسهم محظوظين لحضورهم هذا الأداء الأوبرالي المميز الذي ـ حسب ما رأت بيث لا شيء آخر يفوقه روعة.

ولا بد أن أم بيث المتيّمة بعروض الأوبرا، أدركت المتعة التي ستحظى بها ابنتها عندما أدرجت حضور هذا الاحتفال المدهش في طليعة برنامج عطلتها.

لم تكن أصوات المؤدّين من أفضل ما سمعته بيث، لأن المسرح المكشوف لا يسمح لهم ربما، بإعطاء أفضل ما عندهم من الغناء، ولكنها وجدت أن التأثير الشامل لهذا العرض لا يمكن أن يكون أفضل في أي مكان آخر.

في الواقع، كانت تشعر بحاجة ماسة إلى تناول الشراب الذي دعاها إليه هذا الرجل، لأن الجوّ كان حاراً وثقيلاً داخل الـ «ارينا». ولم تكن بيث قد تأقلمت مع حرارة طقس آخر أيام شهر تموز في إيطاليا. ومع ذلك لم يكن بنيتها قبول دعوة هذا الرجل، مهما كان العطش الذي تشعر به شديداً!

ـ عصير برتقال؟

حسم الموقف عندما لم يتلقَّ جواباً، فنهض عن مقعده، وكان طويل القامة مثلما توقعت. واستدار ليتقدم بين جمهور الحاضرين نحو المقصف دونما صعوبة على الإطلاق. وبدا أن الآخرين لاحظوا فيه، تماماً مثل بيث، كائناً فائق القدرة.

تعمدت بيث أن تنتقل إلى الجهة الأخرى، حالما ضاع أثره بين الجماهير المحتشدة. لم تكن تستسيغ شراب البرتقال بشكل خاص،

ولكنها كانت على استعداد، في هذا الطقس الحار، لشرب أي شيء كي تطفىء الظمأ الذي شعرت به، منذ دخولها المسرح.. إلاّ أنها صمّمت على ألاّ يكون لها أي شأن مع هذا الرجل.

ابتسمت برضىً حين سمعت صوتاً أنثوياً يعلن على مكبرات الصوت، أن فترة الاستراحة ستدوم خمس وعشرين دقيقة. تُعتبر عروض الأوبرا في إيطاليا مناسبات اجتماعية، خاصة إن كانت على هذا المستوى الضخم. تنبهّت بيث مسبقاً، إلى أن الحفل قد يدوم ثلاث إلى أربع ساعات. وإن كان كل ما حظيت برؤيته في الفصل الأول مثال على ما سيأتي لاحقاً، فلا مانع لديها أن يدوم حفل الأوبرا عشر ساعات.

تمنّت لو يتركها هذا الرجل وشأنها. ولكن الاحتمال بعيد المنال، خاصة أن كليهما من انجلترا، ومقعده يطل مباشرة على مقعدها.

ولكن ما الذي يفعله رجل كهذا بمفرده في فيرونا؟.

لاحظت بيث على الرغم من أنها لم تنظر إليه إلاّ لدقائق قليلة، أنه رجل يمتلك الثروة والنفوذ، ومعتد بنفسه بصورة ظاهرة. لقد تعلمت خلال السنوات الأخيرة أن الأغنياء وأصحاب النفوذ الكبير، هم، دون سواهم، القادرون على ابداء هذه الدرجة من الغرور. ونادراً ما يتنقل الرجال الأثرياء والأقوياء جداً بمفردهم. كما اكتشفت أن باستطاعتهم شراء من يؤمّن لهم الرفقة والصحبة، هذا إذا لم تكن متوفرة لهم أصلاً.

ومع ذلك، كانت على يقين من أن هذا الرجل بمفرده.

أضاعت نصف وقت الاستراحة في التفكير برجل، لا تهمها رؤيته ثانيةً.

شربت الماء الذي ابتاعته لنفسها ببطء إلى أن انتهت فترة

الاستراحة، وأعلن بدء الفصل الثاني من الأوبرا.

وعند عودتها وجدت كأساً طويلة مليئة بالعصير، موضوعة على الوسادة التي استأجرتها لتغطي بها المقعد المعدني خلال العرض الأوبرالي.

كوّرت شفتيها وهي تنظر إلى الكأس وعرفت أن لا خيار أمامها إلا في التقاطها، للجلوس على المقعد. واضطرت للقيام بهذا، لأن اضاءة المسرح أخذت تخفت تدريجياً، استعداداً لبدء الفصل الثاني من العرض.

اللعنة على هذا الرجل!

كان بودّها أن تدفع الكأس تحت مقعدها وتنسى أمره، ولكن ذلك سيكون تصرفاً فظاً، وهذا ليس من عاداتها. فهي لم تعامل أحداً يوماً بهذه الفظاظة ولا حتى المتطفلين الغرباء... مع أن هذا الرجل بدأ يتجاوز الحدود المعقولة!

التفتت نحوه للحظة وجيزة وهي ترفع الكأس دلالة على الشكر، وارتسمت على وجهها ابتسامة تشير إلى أن الأمر ينتهي عند هذا الحد.

ولكان ذلك نهاية هذا اللقاء بالنسبة لـ بيث، لولا التصميم الّذي ومض في عينيه وأدركت من خلاله أن الأمر أبعد من أن ينتهي.

ولكن حالما شعت أضواء المسرح، نسيت أمر الكأس ومن قدمها لها. ولم تتنبه إلى أنها شربته أثناء عرض الفصل الثاني، بعدما أخذتها روعة العرض تماماً.

ـ هل ترغبين بكأس أخرى؟

أزعجها أن تجد الرجل قريباً جداً منها، جالساً على مقعده ومنحنياً إلى الأمام نحوها، ووجهه قريبٌ جدّاً من وجهها، ما جعلها تشعر بالاضطراب.

حدقت بيث فيه وعيناها الزمرديتان تشعّان غضباً، أما هو، فكانت عيناه ترمقانها بنظرات تهكمية بينما كان يشير إلى الكأس الفارغة بين يديها.

ـ يبدو أنك استمتعت كثيراً بهذا الشراب!

اصطبغت وجنتاها الشاحبتان بلون قرمزي، من شدة غضبها. وغطى شعرها الأشقر المنسدل على كتفيها وجهها المتوقد.

ـ أنا لم أعِ حتى...

رد عليها بنبرة تنم عن الرضى: «لم أخطىء في ظني أنك إنجليزية، مع أنه يجب أن أعترف أنني بدأت أشك في ذلك، عندما فشلت في الحصول على رد منك...».

فقاطعته بيث ببرودة: «لقد أخطأت الظن في الواقع، فأنا مانية!».

وشعرت بشيء من الزهو لتمكنها من نقض فرضيته، وبشيء من الفخر لانتمائها إلى تلك الجزيرة الصغيرة الواقعة وسط البحر الإيرلندي، ما بين انكلترا وإيرلندا، حيث ترعرعت حتى بلوغها الثامنة عشرة من العمر... ولا تزال تحن إليها، رغم السنوات التي أمضتها بعيداً عنها.

رفع حاجبيه الداكنين وقال: «هل من فرق في ذلك؟».

لمعت عيناها استنكاراً، وصاحت وهي تنظر إليه شذراً: «طبعاً، فهنالك...».

أدركت أن هذه هي ردة الفعل التي ينتظرها منها، أدركت أن انطباعها الأول عنه كان صحيحاً. إنه رجل ذكي جداً، ويعرف تماماً كيف يستغل ذكاءه لبلوغ مآربه. نهضت عن مقعدها برشاقة وصرفته عنها بإيماءة من رأسها: «لو سمحت لي...».

أمسك بذراعها واعترض طريقها.

ـ لم تردي عليّ بشأن العصير.

تصلبت ملامح أسارير بيث وكأن شيئاً ما لسعها، وحدقت بنظرات متحجرة إلى يده الممسكة بذراعها إلى أن أرخى قبضته عنها. وحالما فعل ذلك، دفعت الكأس الفارغة في يده، وانتفضت قائلة:

ـ بصراحة، لم أكن أرغب حتى بهذه الكأس.

شقّت طريقها بين الجموع مبتعدة عنه. واتجهت إلى أحد المقاصف، دون أن توفر له فرصة أخرى لمضايقتها.

كان آخر ما ترغب به هو أن يبدر عن رجل كهذا، أي اهتمام بها.. ولم تستطع كبح الرعشة التي سرت في عروقها.

حمدت الله لأن برنامجها لا يتضمن غير يوم آخر في فيرونا، قبل أن تنتقل إلى البندقية. وهي لم تأتِ إلى فيرونا إلا لمشاهدة عروض مهرجان الأوبرا السنوي، شأنها شأن الموجودين هنا.

لسوء الحظ لم يكن أمامها من خيار سوى الجلوس على هذا المقعد بالذات قريباً من الرجل الذي أثار غضبها حتى نهاية العرض. فقد كانت جميع المقاعد الأمامية وسط المدرج محجوزة قبل أشهر. ولم تستطع الحصول على مقعد خالٍ في ذلك الموقع. وبدا واضحاً أن الحجوزات لن تلغى، فلا أحد يريد أن يفوّت على نفسه هذا العرض الذي انتظر طويلاً لحضوره.

كان وقت الاستراحة الثانية أقصر بقليل من وقت الاستراحة الأولى. ومع ذلك كان لدى بيث متّسع من الوقت لشراء كوب من العصير تطفىء به ظمأها، خاصة أنه لم يعد هناك نسمة هواء واحدة في تلك الأمسية.

وكان من حسن حظها أن اختارت هذا الفستان الخفيف الأخضر اللون، بدلاً من تلك الفساتين السميكة التي ترتديها عادة لحضور عرض أوبرا أو مسرحية في لندن. فعلى الأقل جعلها هذا الفستان

بكتفيه العاريتين تشعر بنسمات الهواء الخفيفة التي كانت تهب من حين لآخر. كان موظف الاستقبال في الفندق الذي تنزل فيه، قد حذرها بأن الطقس سيتحول إلى عاصف، فكانت على يقين بأن توقعاته صحيحة، لاسيما أنّه من أبناء المنطقة. ولكنها أملت ألاّ تهب العاصفة قبل انتهاء عرض الأوبرا، لأن الأمر سيكون مريعاً جداً لو هطلت الأمطار الآن... مريعاً كتحرش هذا الرجل المتواصل بها... فقد وجدت هذه المرة أيضاً، كوباً من العصير على مقعدها، ينتظر عودتها.

تعمدت أن تتجنب النظر إلى هذا الرجل، بينما كانت ترفع الكوب عن مقعدها لكي تتمكن من الجلوس عليه. ومع ذلك شعرت أن نظراته تلفح كتفيها العاريتين.

مال عليها ليهمس في أذنها: «إن كوباً آخر سينعشك!».

لم تستطع إنكار صحة قوله، فقد فكرت في جلب كوب من العصير معها لتشربه أثناء الفصل الثالث؛ لكنها لم تجد محاولة العودة إلى مقعدها عبر الجموع المتدافعة وهي تحمل كوباً ممتلئاً بالعصير، فكرة جيدة.

كان الزوجان الألمانيان في ذلك الحين يتابعان ما يجري بينهما بنظرات متفهمة. وارتاعت بيث من الافتراضات التي كانت تدور في بالهما. اللعنة على هذا الرجل! لِمَ لا يكف عن مطاردتها ويتركها وشأنها؟ كان رفضها له واضحاً، ولكنها كانت واثقة من أن رجلاً من هذا الصنف قد يعتبر ترددها، بمثابة تحدٍّ له.

شكرته على كوب العصير وهي تشعر بالضيق وتعي أن الزوجين الألمانيين كانا يومئان برأسيهما نحوهما استحساناً.

تمتم الرجل بينما كانت أنوار المدرج تطفأ ثانية:

ـ سأدعك تحضرين لي أنت، شراباً أثناء الاستراحة التالية.

حاولت بيث فتح فمها لتحتج على هذه الفكرة، لكن الموسيقى التي ابتدأت ترتفع في المكان، منعتها عن فعل ذلك.

لم تكن تنوي أن تشتري له شراباً أثناء الاستراحة التالية ولا في أي وقت آخر خلال هذا العرض، فهي لم تطلب منه عصيراً في كلتا المرتين، ولا تنوي أن ترد له هذه اللفتة. وإذا لم يفهم من الإشارة أنها غير مهتمة به، فسوف تضطر إلى أن تقول له ذلك بصراحة وفي أقرب وقت ممكن!.

ولكن ما إن نهضت عن مقعدها بعد انتهاء الفصل الثالث، حتى قبض على ذراعها بشدة، وجرّها إلى أحد المقاصف.

حين استيقظت بيث من هذه الصدمة التي فاجأتها، التقطت أنفاسها، وصرخت بحدة:

ـ هلاّ سمحت من فضلك...؟.

تجاهل الرجل الواقف إلى جانبها محاولاتها لمقاومته، وهو يندفع بين الحشود، ويتمتم باللّغة الإيطالية كلمات الاعتذار، ثم يومىء برأسه بتهذيب للأشخاص الّذين يفسحون لهما الطريق.

ـ ماذا تظن نفسك فاعلاً؟

تمكنت أخيراً من النطق وهي تلهث حين وصلا إلى البهو. وحاولت إفلات ذراعها من بين أصابعه النحيلة، ونظرت إليه بسخط.

رد عليها متمتماً وهو يشعر بالرضى عن نفسه ويشير إلى ما حولهما:

ـ أتجنب دائماً زحمة التدافع نحو المقصف. ماذا تريدين أن تشربي؟

فردت عليه بتهكم: «ظننت أنه دوري في شراء الشراب».

تقبل ذلك بطيبة خاطر:

ـ شكراً. هل لي بكوب من عصير الجزر؟.

بدا سلساً ومعتداً بنفسه إلى درجة لعينة، وبدت سيماء الرضى على وجهه، بعد أن دفعها لمطاوعة رغباته. كل هذا كان أكثر مما تستطيع احتماله.

أحنت رأسها بلطف قبل أن تتجه بخفة إلى المقصف بين الأشخاص الذين انضموا إليهم، وهي تقول:

ـ بكل تأكيد!

رغم اندفاعها للوصول بسرعة، وجدت أن بضعة أشخاص قد وصلوا إلى مكان بيع الشراب قبلهما، واحتاج الأمر منها بعض الوقت لشراء كوب من العصير والعودة إلى ذلك الرجل. ورسخت تصميمها على ألا يكون لها أي شأن معه، عندما لاحظت سيماء الغرور في نظراته.

ناولته الكأس وقالت: «أرجو أن تستمتع بشرابك!».

وكانت تعابير وجهها تنم عن الازدراء الصرف وهي تستدير مبتعدة عنه.

وعلا العبوس وجه الرجل عندما لاحظ أنها على وشك الذهاب.

ـ أين شرابك؟.

فرفعت حاجبيها ببرود وهي تبادله النظرات، وقالت:

ـ لم أذكر أنني سأشتري شراباً لي.

ارتاحت حين ردّت له الصاع صاعين، ما جعل عينيها تبرقان بلون الزمرد. ثم أشاحت بنظرها عنه، وهي تقول: «عن إذنك».

فرفع كأسه اعترافاً منه بانتصارها، وعيناه تبرقان بالاعجاب: «في صحتك!».

فأيقنت بيث أن قلائل هم من يستطيعون أن يحرزوا أي نوع من الانتصار على هذا الرجل!

ولكن لسوء الحظ، وعلى الرغم من المتعة الواضحة التي

استمدتها في تصرفها هذا، كان ذلك أسوأ ما تستطيع فعله مع رجل من هذا الصنف. لقد قطعت وعداً على نفسها بأن تكون موضع تحدٍّ أكبر...

أخذت الاستراحة الثالثة وقتاً أطول من الاستراحتين السابقتين، بسبب بعض الصعوبات الفنية في تجهيزات الفصل الرابع والأخير. في هذه الأثناء تجنبت بيث العودة إلى مقعدها، رغم تأكدها من أن هذا الرجل الذي أثبت أنه آفة مزعجة، لديه من اللّباقة ما يكفي ليمنعه أن يقبع على مقعده منتظراً عودتها.

كانت على حق. فقد لاحظت، عندما عادت أخيراً، أن مقعده خالٍ. بيد أنها انتبهت لحضوره بعد عدة دقائق، ولم تكن بحاجة للالتفات لتتأكد من حضوره، إذ كانت حرارة نظراته تلفح عنقها.

لو لم تكن مأخوذة تماماً بالعرض، ولو لم تمنعها شدة التأثر بالفصل الأخير من الأوبرا من الرحيل، لاستطاعت الخروج من المسرح والافلات من تحرشاته. ولكنها كانت هدفاً سهلاً لتصميمه الشديد.

في الوقت الذي أدركت فيه ذلك، كان الرجل اللعين قد اتجه نحوها من جديد دون أن ينبس ببنت شفة. ووجدت نفسها تشق طريقها بحزم وتهذيب عبر الجموع المتزاحمة المتلهفة للخروج من المدرج الروماني بعد انتهاء العرض. كان الجمهور متحمساً خلال الساعات الأربع الماضية. أما الآن وقد انتهت الأوبرا، فبدوا بحاجة إلى متابعة حياتهم العادية.

توقفت بيث فجأة، غير آبهة للأشخاص الذين اصطدموا بها عرضياً، وأفلتت ذراعها من قبضته، قائلة:

ـ ألن تكف عن ذلك؟ لا أستحسن عادتك هذه في إمساك يدي:

رفع يديه في حركة دفاعية: «ظننت فقط أنه...».

ـ لا أهتم بما تظن يا سيد. . .؟

ألقت إليه بنظرة جارحة وكوّرت فمها، إذ أدركت أنهما لم يتعارفا رسمياً.

ـ غريفين. . . ماركوس غريفين.

لماذا ينظر إليها هكذا، وكأنها يجب أن تعرف اسمه؟

إن كان ذلك ما يتوقع، فسيخيب ظنه للأسف؛ فاسمه ليس مألوفاً لها. وحتى لو كانت تعرف اسمه، لم تكن لترضي غروره بالاعراب عن معرفتها به.

استطردت بنبرة باردة:

ـ حسناً يا سيد غريفين، خلافاً لما تظنه، أنا لا أحبّذُ أن تجرجرني من مكان إلى آخر مثل كيس البطاطا الذي. . .

فقاطعها بتهكم وهو ينظر إليها بتقدير وإعجاب:

ـ أنت أبعد ما تكونين عن كيس بطاطا.

قابلت بيث نظراته بثبات وعزم وهي مصممة على أن تريه بأنه لم يحدث أي وقع في نفسها، ولا أثرت بها تصرفاته خلال السهرة. وقالت بلهجة شديدة:

ـ مهما كان رأيك بي، فقد وجدت تصرفاتك في هذه الأمسية مهينة.

وتنهدت قبل أن تضيف:

ـ بالمناسبة، رفضت بصورة مهذبة أن تشتري لي شراباً، ولكنك تجاهلت هذا الرفض. وبعد ذلك أجدك تفرض نفسك علي بوقاحة. والآن اسمح لي، لقد انتهت السهرة وأرغب بالعودة إلى الفندق الذي أنزل فيه.

فرد عليها بدون مواربة: «لا!».

كانت تهمّ بالخروج ولكن كلمته أجفلتها، فاستدارت ببطء نحو

ماركوس غريفين مذهولة وقالت:

ـ ماذا تعني بـ لا؟

فرد عليها ببرودة:

ـ أعني، أنّني لن أسمح لك. لقد اكتشفت أنك بريطانية مثلي في بلد أجنبي، وظننت أنه سيكون لطفاً منك لو تشفقين عليّ، ونمضي بعض الوقت معاً. لكن إن كنت تفضلين أن تكوني غير ودودة، فليس هناك ما يمكن عمله لتغيير رأيك، أليس كذلك؟

جعلها كلامه تشعر بالذنب، لكنه لم يفلح في تغيير رأيها.

لم يسعها ربط كلمة «لطف» بهذا الرجل. أما بالنسبة إلى حاجته إلى الشفقة، فهي لا شك كلمة استعملها ليثير عطفها، فرجل مثله ليس بحاجة إلى شفقة أحد.

ومن المؤكد أنه ليس بحاجة للسعي وراءها، لأنه يستطيع أن يستمتع بصحبة النساء ليلاً ونهاراً، ودون بذل أي جهد. ولن يعوقه مطلقاً حاجز اللغة، فالقوة ترشح منه، وهذا كافٍ لجذب نساء كثيرات. لكنها، لن تستسلم لسحره أبداً!.

عضت على شفتها وردت عليه: «تماماً».

أومأت برأسها معلنة انصرافها قبل أن تبتعد عنه شامخة الرأس، وهي تتحداه أن يجرؤ على إيقافها مرة أخرى، لكن ذلك لم يحصل. فلم تمسك بذراعها أي يد، ولم تسمع أي تعليق تهكمي يدفعها إلى الرد. مع ذلك شعرت بيث بحرارة نظراته الفولاذية تلفح ظهرها. وأحست بها إلى أن صعدت السلم وخرجت إلى الشارع. عرفت أنه يلاحقها عن بعد، المهم أنه يلاحقها!.

رغبت بالتنزه قليلاً كالآخرين، على الميدان أمام المدرج الروماني المغمور بالأضواء. إنه فعلاً منظر رائع. فقد بقيت جدران المدرج الخارجية على حالها، منذ بنائه في القرن الأول الميلادي،

رغم ما شهده من أحداث تاريخية.

رغبت بيث أن تمضي بعض الوقت في تأمل ذلك التاريخ، ذلك المكان الرائع المحيط بها، لتفكر في عرض الأوبرا الرائع الذي شاهدته داخل هذه الجدران هذا المساء. ولكنها بدلاً من ذلك، أطلقت قدميها للريح، وكأن هنالك من يطاردها.

كانت تحترق غيظاً لاضطرارها إلى تجاوز المتنزهين بسرعة، وكرهت الشعور الذي استولى عليها بأن هناك من يطاردها حتى باب الفندق.

* * *

٢ ـ الهموم تسافر أيضاً

ـ من المحال ألا يغمر المرء الاحساس بجمال المكان ورومانسيته، أليس كذلك؟.

هجر بيث الإحساس بالانشراح، حالما تناهى إلى مسمعها ذلك الصوت المألوف. وتمنت لو أنها لم تألفه على الإطلاق!.

أمضت بيث ليلة مؤرقة مضطربة، ولم يكن السبب الفندق الذي تنزل فيه، فقد كانت أمها من اختار هذا الفندق وحجزت لها فيه، إذ كانت تؤمن بالسفر على نحوٍ راق، مع أنها لم تسافر مطلقاً.

كان سبب توترها ملاحقة ماركوس غريفين المستمرة لها الليلة الماضية، ما جعل النوم يجافيها طوال الليل، وهي تكاد تحترق غيظاً منه، وسببت لها هذه الحالة الانزعاج الشديد.

ولكن النوم حتى وقت متأخر في الصباح، وتناول الفطور في السرير، وشرب الكثير من القهوة، كل ذلك جعلها تشعر بالراحة والاستعداد للتمشي إلى منزل عائلة كابوليت الموجود في وسط المدينة.

دخلت أولاً إلى باحة المنزل الذي تلفّه السكينة والهدوء، ثم المنزل نفسه وصعدت إلى الشرفة التي وقفت عليها يوماً جولييت، يناجيها حبيبها روميو.

لا بد لكل من يأتي إلى مدينة فيرونا أن يزور هذا البيت. ومع أنه لم يكن عند بيث رغبة بمحاكاة تقاليد السياح، غير أنها كانت مولعة جداً بشكسبير، وكانت عائلة كابوليت قد سكنت وجدانها منذ وقت بعيد.

شاهدت تمثال جولييت المنتصب في الباحة الخارجية للمنزل، وساورها شعور غريب... أن تنظر من حيث هي إلى التمثال البرونزي لتلك المرأة الشابة التي كانت تتسامر مع حبيبها المحرم عليها، من تلك الشرفة بالذات.

تأملت بيث للحظات وجيزة رومانسية المشهد الصافية ـ رغم اقتحام الكثيرين ممن يتجولون في أنحاء المنزل، الشرفة وهم متلهفين مثلها، لنيل حصتهم من النظر إلى الأسوار المحيطة بالباحة والمغطاة بنبات اللبلاب المتعرش.

استدارت على عقبيها لتواجه ماركوس غريفين. وتعابير وجهها تدل على عدائية واضحة. ولم يكن على الشرفة في تلك اللحظة أحدٌ غيرهما.

ـ هل تلاحقني يا سيد غريفين؟.

فرفع حاجبيه الداكنين، متظاهراً بالدهشة: «بالطبع لا، يا آنسة..؟».

وتوقف عن الكلام، مكرراً ما فعله الليلة الماضية. وبدا وكأنه ينتظر منها أن تكمل الجملة، وتصحح له إغفال اسمها.

لاحظت أنه كان يرتدي ثياباً غير متكلفة... قميص قصير الكمّين من اللون الرمادي الخفيف الذي كان متناسقاً مع لون عينيه الفولاذيتين. ومع ذلك، كانت بيث على يقين بأن ثيابه غير المتكلفة، تحمل تواقيع أشهر مصممي الأزياء، وكانت على يقين أيضاً أن حذاءه الرمادي، هو من صنع يدوي.

بدت لها ثيابه على ضوء النهار، وبعيداً عن الآخرين، كثياب زبائن حفلات الأوبرا الأثرياء، وشعرت بتواضع ملابسها، التنورة القطنية الخوخية اللون والقميص البيضاء بالإضافة إلى الصندل الذي تنتعله.

لم تظهر النية لاعطائه اسمها الأول، بعد أن أصبح مألوفاً لها أكثر من اللازم!.

ـ لو سمحت...

حاولت تجاوزه وهي واعية جداً لحقيقة أنهما ما زالا بمفردهما تماماً.

استفهم برقة:

ـ لماذا تصرّين على ذلك؟ المضي بالابتعاد؟

استطرد موضحاً عندما لاحظ الحيرة في عينيها. وفي الوقت ذاته، بدا مسترخياً تماماً وهو يدس يده في جيب بنطاله.

اعترضت ببرودة على ما قاله:

ـ لماذا تداوم على التحرش بي بهذه الطريقة، مع أنه من الواضح أن ذلك يضايقني؟

رد عليها بهدوء:

ـ ربما لأنه من الواضح أنك تفضلين ألاّ أفعل.

اتسعت عيناها فجأة من الدهشة لصراحته، من دون أن تنسى أنها قد تكون مجرد طريقة أخرى للتقرب منها.

ردت عليه بجفاء: «ما دمت تعرف ذلك، دعني وشأني!».

أدركت بيث أن أحد أسباب تصميمه على اللحاق بها، رغم رفضها له هو اعتداده بنفسه. فهو ما كان ليصدق أن ترفضه أي امرأة.

كانت متيقنة أن ماركوس غريفين يعتقد أنها تتظاهر بأنها صعبة المنال. صعبة المنال جداً! ولكن من المحتمل أن تكون مثل هذه

التحديات تثيره.

هز كتفيه بخفة: «لا أعتقد أن هناك ضير في المجاملات الودية».

إنه على خطأ. فقبول مثل هذه المبادرات البريئة حول عقد الصداقات ـ قد كلّفها الكثير، وما زالت تعاني من آثارها العاطفية، وعلى الأرجح أن معاناتها ستستمر. لكنها لم تكن تعتزم وضع ثقتها في هذا الرجل.

فقالت له، ظناً منها أنها قد تستطيع أن تصرفه عنها.

ـ أنا أمضي عطلة هنا يا سيد غريفين، وهنالك الكثير من الأماكن التي أود رؤيتها والأمور التي أريد القيام بها، والوقت أقصر من القيام بكل ذلك خلال...

قاطعها بسلاسة:

ـ يسرني جداً أن أكون دليلك السياحي، فأنا أعرف فيرونا جيداً.

لكن بيث لم تكترث لكلامه، فتنهدت بنفاد صبر:

ـ لا أرغب بدليل سياحي، شكراً!

وشعرت فوراً بالندم لشكره، فليس من سبب يجعلها تشعر بالامتنان لهذا الرجل.

زادت إيماءة الانتصار الخفيفة التي ظهرت في عينيه، من انزعاجها، وأخذت تستشيط غضباً.

ـ هل استمتعت بعرض الأوبرا ليلة البارحة؟.

لم يثبط تغيير الموضوع من عزيمتها على رفضه، فقالت محتجة:

ـ سيد غريفين...

فأجاب عن سؤاله بنفسه:

ـ وكيف من الممكن ألاّ أستمتع بعرض الأوبرا؟ لقد كان غاية في الروعة! هل ستحضرين عرض أوبرا لاجيوكوندا الليلة؟.

كان البرنامج الذي وضعته لها أمها يتضمن حجوزاً لحضور

عرض لاجيكوندا. لكن ما اختبرته من متعة خلال مشاهدتها لأوبرا عايدة ليلة أمس، جعلها لا ترغب فعلاً في مشاهدة عرض أوبرا آخر بهذه السرعة. كانت أمها على حق عندما قالت لها إنها متعة تختبر مرة في العمر.

أجابته بنبرة رخمّها الامتعاض: «لم أضع برنامجي بعد!».

أومأ متفهماً وقال:

ـ متعة فائقة الحد، أليس كذلك؟ خبط متواصل للحواس.

وصفت كلماته ما تشعر به تماماً. وشعرت أنها لو التقت ماركوس غريفين في غير هذه الفترة من حياتها، لكانِ نعم الرفيق... ليس لأنه جذاب، بل لأنه رجل يمكن التحدث معه، فقد أدركت أنه مثقف وذكي.

لكنها لم تكن ترغب إلا في تبادل الأحاديث السطحية والمقتضبة مع الرجال، في هذه الأيام. ولعل هذا ما كان يحول بينها وبينه.

أقرّت باستخفاف: «كان العرض ممتعاً».

ـ ما رأيك لو نتابع الحديث في هذا الموضوع حول مائدة عشاء فاخرة؟

فأطلقت ضحكة، وهي تهز رأسها غير مصدقة:

ـ لقد ظننت قبل القيام بهذه الرحلة، بأن الشبان الإيطاليين هم من يضايقون النساء.

رد عليها باستخفاف: «جدتي إيطالية».

ربما ذلك يوضح إلمامه باللغة الإيطالية التي سمعته يتكلم بها الليلة الماضية، وربما هذا أيضاً هو سبب سمرة بشرته. ولكن مع ذلك لم تجد ما يبرر إلحاحه في التقرب من النساء.

تشدقت بنبرة جافة: «لا أرى في ذلك عذراً لك، يا سيد غريفن».

قال مستهزئاً:

ـ وأنا لم أكن أحاول أن أعطي عذراً، بل على العكس، يشرفني جداً أن أرث عن جدتي جاذبيتها وسحرها.

وجدت بيث هذا الرجل ساحراً من الدرجة الأولى، وأيقنت أنه بات يشكل خطراً يهدّد وحدتها... الوحدة التي تريدها أكثر من أي شيء آخر في الوقت الحاضر.

تكلمت بتهذيب بالغ:

ـ أتمنى أن تمضي وقتاً سعيداً في عطلتك، ولكن اسمح لي.. فما زال أمامي الكثير من الأماكن التي أود رؤيتها قبل أن أغادر فيرونا.

رد عليها بابتسامة متحسرة: «بمفردك؟».

فأومأت برأسها ايجاباً: «بالضبط!».

تنهد وهز كتفيه: «إذن، لا تقولي يوماً إنني لم أعرض عليك خدماتي».

فردت متشدقة: «لا، لن أقول ذلك قطعاً، وهل يمكنني غير ذلك؟».

لم يحاول إيقافها وهي تبتعد عنه، كما فعل الليلة الماضية. وعدلت بيث عن متابعة تجوالها في منزل آل كابوليت، خوفاً من أن تلتقيه مجدّداً.

مع ذلك، لم تستطع مقاومة الرغبة في القاء نظرة أخيرة إلى الشرفة قبل أن تغادر الباحة نهائياً. أما هو فبقي قابعاً في مكانه يسترق النظر إليها.

كانت تعابير وجهه مختلفة تماماً عن الّتي بقي يظهرها إلى الآن. ولكن الابتسامة الخجولة عادت إلى وجهه، حين وعى فجأة أنها تمعن النظر به، ولوّح لها بيده مودعاً والابتسامة لا تزال مرتسمة على

شفتيه.

ولكن بيث أيقنت أن الدفء في عينيه لم يعد موجوداً. كان من الواضح أن ماركوس غريفين لا يتقبّل أن يعارضه أحد، وهذا ما فعلته بمقاومتها له. وقالت في نفسها إنها على حق في الاحتراس منه.. أشدّ الاحتراس.

حين وصلت إلى الفندق، أخبرتها موظفة الاستقبال، وهي تناولها مفتاح الغرفة، بأنها تلقت مخابرة هاتفية خلال غيابها، فقطبت بيث جبينها استغراباً، لا سيّما أن عدداً محدوداً من الناس يعرف مكانها.

أضافت الموظفة الجميلة وهي تدس في يد بيث الورقة التي دوّنت عليها الرسالة الهاتفية.

ـ أعتقد أنها من والدتك.

فانفرجت أسارير بيث على الفور، وشكرت الموظفة الشابة قبل أن تبتعد عنها. لا شك أن أمها اتصلت للتأكد فقط أنها ما زالت هنا ولم تعد أدراجها إلى لندن دون إعلامها!.

فقد كانت أمها ترفض الاقتناع بأن ابنتها تفضل الانفراد بنفسها في أكثر الأحيان. ولكن على أي حال، أدركت بيث أن لا مفر من الرد على المخابرة.

حيّتها أمها حالما سمعت صوتها:

ـ كيف تجري الأمور معك يا حبيبتي؟

ترقرقت الدموع في عيني بيث حالما سمعت صوت أمها الحنون، والمألوف، القادم من بعيد. هذه المرة الثانية التي تبكي فيها بيث في أقل من أربع وعشرين ساعة، هي التي كانت قلّما تبكي.

طرفت عينيها كي لا تنجرف إلى البكاء، وشعرت في تلك اللحظة الوجيزة بالحنين إلى الوطن والتوق إلى ابتسامة أمها وذراعيها

الدافئتين. ولو عرفت أمها ما يخالجها الآن من أحاسيس، لكانت حجزت مقعداً على أول طائرة متجهة إلى فيرونا لتكون إلى جانب ابنتها، وتقدم لها ما أمكنها من الرعاية.

ردت بيث بصوت ثابت: «أنا على ما يرام يا أمي!».

سألتها أمها بتلهف: «كيف كان عرض الأوبرا؟».

أقرت بيث بصوت جاف لإرضاء أمها، على الأقل في هذا الموضوع:

ـ ليلة من العمر، لقد كان العرض مذهلاً ومثيراً.

تنهدت أمها وقالت:

ـ آه، يا ليتني كنت معك هناك!

كان باستطاعة بيث رؤية الخيبة البادية على وجه أمها... الوجه الذي ما زال يحتفظ بجماله. كانت أمها جميلة جداً بملامحها الكلاسيكية وشعرها الأشقر ذات التسريحة الأنيقة، وقدها النحيل الذي يبدو دائماً جذاباً وفاتناً عندما ترتدي بذلات العمل الرسمية خلال النهار.

أضافت أمها مؤنبة:

ـ أنت أحياناً عنيدة جداً، يا بيث!.

شعرت بيث بشيء من تأنيب الضمير لأنها كانت السبب في حرمان أمها فرصة مشاهدة أوبرا عايدة. غير أنها تذكرت أن والدتها شاهدت عروض الأوبرا على مدرج «الأرينا» مرات عدة من قبل، ما خفف عنها وقع الشعور بالذنب. لم تكن بيث تود القيام بهذه الرحلة ولم تكن ترغب في أن يرافقها أحد لو هي عدلت عن رأيها وقررت القيام بها، حتى ولو كان الشخص الذي سيرافقها هو أمها التي تحبها حباً جماً وتتفهم آلامها. وكان من الصعب عليها جداً أن ترفض أن ترافقها أمها لما أبدته من رغبة بذلك.. ولكن لم يكن أمامها، فعلاً،

أي خيار آخر.

ـ أتساءل أحياناً من أين لي هذه الطباع؟

فردت أمها بجفاء:

ـ لا يمكنني أن أتخيل عمن ورثت ذلك. وجلّ ما أستطيع قوله، إنه كان من الأفضل لي أن أكون معك، بدلاً من إتمام صفقة الأعمال الأخيرة.

لم تصدق البتة ما سمعته، رغم معرفتها بمدى حب أمها لها.

لا أحد يصدق ممن يرون أمها، أنها امرأة شديدة المراس في إدارة الأعمال. على أي حال، كانت كاترين بالمر امرأة أعمال ناجحة بالفعل، امرأة عصامية بدأت من الصفر حتى باتت تملك سلسلة عالمية من محلات بيع الملابس الفاخرة. وكانت بيث تعرف مدى الصعوبات التي مرت بها أمها، لتصل إلى ما وصلت إليه. وكانت تكن لها احتراماً شديداً كامرأة ناجحة، فضلاً عن كونها أمها.

كانت أمها على أهبة الدخول في مجالات عمل جديدة، بدأتها بعرض الأكسسورات الفاخرة ثم بعرض الملابس الراقية في محلاتها. وكان ذلك خطوة هامة. وكانت بيث تعرف كل هذا، وتعرف أيضاً أن انهماك أمها في إتمام الصفقة، ساعد في تخفيف وقع الصدمة عنها، عندما أصرت عليها بالبقاء في انكلترا بدلاً من مرافقتها إلى فيرونا لقضاء العطلة.

لقد ضحت الأم بالكثير من أجل ابنتها على مر السنين ـ ولم تكن بيث تعتزم طلب المزيد منها، خاصة أنها أصبحت بدورها ناجحة في عملها.

طيبت خاطر أمها برقة: «أنا متأكدة من ذلك، ولكن لا داعٍ لذلك حقاً».

ردت أمها بانزعاج:

ـ أعرف ذلك يا حبيبتي، ولكن... اوه، إنسي الموضوع. هل أعجبتك فيرونا؟ إنها ممتعة، أليس كذلك؟.

وافقت أمها الرأي، مع أن ماركوس غريفين ألقى ظله الثقيل على معظم الوقت الذي أمضته في حضور عرض الأوبرا. وقالت لها بنبرة جافة: «جداً!».

ـ يبدو من نبرة صوتك، أنك ما زلت محبطة، يا بيث!

كان باستطاعتها أن تتصور تجهم وجه أمها، من خلال صوتها عبر الهاتف.

ـ أهذا أمر غريب، بعد ما حدث لي؟.

تمنت لو لم يخرج منها الكلام بنبرة حادة، ولكنه كان من الصعب عليها كبح جماح نفسها.

تنهدت أمها وقالت:

ـ أملت أن تشرح هذه العطلة صدرك قليلاً، وتبعد عن ذهنك الأمور التي حدثت معك.

فتوسلت إلى أمها برقة: «امنحيني بعض الوقت!».

ـ لقد أعطيت الأمر الوقت الكافي، كلنا فعلنا ذلك، وأنت أدرى بذلك. ولكن كل تلك الأمور اللعينة... أوه، لقد عاهدت نفسي ألاّ أعود إلى ذكر هذا الموضوع!

غيرت أمها موضوع الحديث متعمدة:

ـ ماذا فعلت خلال النهار يا بيث؟.

إن اطلاع أمها على تجوالها في شوارع فيرونا وأزقتها قبل زيارة منزل آل كابوليت وبعدها، إضافة إلى زيارتها هذا المنزل، لم يستغرق غير دقائق قليلة.

بدا من نبرة صوت كاترين أن ظنها قد خاب:

ـ هل هذا كل شيء؟ ألم يحدث معك شيء آخر؟

قفزت إلى ذهن بيث ظنون مبهمة، نحّتها على الفور. لأنه، حتى لو كانت أمها مصممة على إعادة السعادة إلى حياتها، فلا يمكنها الاقدام على مثل هذا التصرف.. أيمكن ذلك؟.

ـ نعم هذا كل شيء!.

حاولت أن تصرف نظر أمها عن هذا الموضوع، وهي متجهمة الوجه، بعد أن تراءى لها أن التقاءها المتكرر بماركوس غريفين، لا يمكن أن يكون محض صدفة. ولكن حتى مع ذلك...

ظهرت الخيبة على أمها، عندما علّقت: «أوه...».

أخذت بيث نفساً عميقاً وهي تتطرق بحذر إلى ما تريد قوله، فيما كانت ستارة نافذة غرفتها منسدلة، حاجبة أشعة الشمس، وأزيز مكيف الهواء الخافت يحميها من حرارة الخارج الحارقة.

ـ أمّي، هل أقدمت على أمر ما... لمساعدتي؟

فاصطبغت نبرة صوت أمها بالحيرة: «كيف ذلك؟».

هل تنم نبرة صوتها عن الصدق، حقاً؟ استمرت ظنون بيث، ما دفعها إلى التنهد والاستطراد!

ـ أنا قادرة على تنظيم حياتي...

أحست بيث أنها جرحت مشاعر أمها لارتيابها عندما ردت:

ـ حسناً، حتماً تستطيعين ذلك يا حبيبتي.

ـ بما يتعلق بي...

احتجت أمها:

ـ أوه... بيث، ظننت أنك اقتنعت في النهاية بأن هذه الرحلة التي أعددتها لك، هي فكرة جيدة في الوقت الحاضر.

لقد فعلت ذلك، فقط لكي تكف أمها عن القلق الشديد عليها.

ـ هذا صحيح، ولكن كل ما وافقت عليه هو مجرد قضاء عطلة بعيدة من انكلترا. وأي تدخل آخر...

بدا من نبرة صوت كاترين أنها ساخطة على مضمون ما قالته بيث. ربما ساخطة أكثر مما ينبغي.

ـ تدخّل؟ ماذا تقصدين؟

لو كانت أمها هي التي رتبت أمر لقائها مع ماركوس غريفين، وهو ما يفسر إصراره على ملاحقتها!... فسوف تعرّض نفسها، إن جاءت على ذكره الآن، إلى كل أنواع الاستجوابات الملحّة من أمها. ومع ذلك، يبقى أمر الطلب من ماركوس غريفين أن يرعى ابنتها في فيرونا، بعد أن تحققت تماماً من وقت تواجده هناك، من الأمور التي تقدم أمها على القيام بها. كانت بيث تعرف أن أمها لا تعتقد أنها قادرة على تنظيم حياتها، كما كانت مقتنعة بأنها تعرف ما هو الأصلح لها. ولكن مع ذلك، لم تكن لتصدق حقاً أن أمها ستضع في طريقها رجلاً مثل ماركوس غريفين. بيد أن الظنون استمرت في نهشها.

حاولت صرفها عن الموضوع بصوت مستخف:

ـ الأمر ليس مهماً. كيف تجري الأمور في محلات لندن؟

ردت أمها بجفاء وبنبرة لاذعة:

ـ استطعت بطريقة ما الاستمرار من دونك. ومهما يكن الأمر الذي كنت تتكلمين عنه الآن، لما أتيت على ذكره لو لم يكن أصلاً، أمراً هاماً.

كان يجب أن تعرف أن كاترين لن تدع الموضوع يمر بهذه السهولة!.

تنهدت بعمق وقالت:

ـ الأمر لا يتعدى كوني قابلت هذا الرجل، وأنا...

قاطعتها كاترين بلهفة:

ـ رجل؟ من يكون هذا الرجل؟ كيف التقيت به؟ أوه، لِمَ لم تخبريني عنه يا بيث؟ أخبريني الآن بكل شيء!

تأوهت بيث وهي تنظر إلى صورتها المنعكسة في مرآة الغرفة. كان باستطاعتها أن تعرف من الحماس الذي تظهره أمها، أنها لم ترتب لقاءها مع ماركوس غريفين. ولكن بما أن بيث أتت على ذكره الآن، فقد أدركت أن أمها لن ترتاح حتى تسمع منها أصغر التفاصيل عن تلك اللقاءات، وإلى آخر كلمة تبادلاها.

أجابت بيث باستخفاف:

ـ لقد عرفني على نفسه خلال حفل الأوبرا.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ هو مثير للاهتمام.

استغربت بيث أن تقدم على مثل هذا الإقرار.

لقد باتت تهتم بماركوس غرفين رغماً عنها. لكن رغم أنها وجدت صعوبة بسيطة في مقاومة ذلك الشعور، إلا أنها بكل صراحة لا ترغب بالتورط في علاقة مع أي رجل.

حثتها أمها والغيظ يتملكها:

ـ هيا يا بيث، تابعي! لقد قلت إنك التقيت برجل مثير للاهتمام خلال حفل الأوبرا، ثم توقفت عن الكلام!.

تنهدت بيث وقد نفد صبرها:

ـ لأنه ليس عندي شيء آخر أخبرك به. لقد تكلمنا بصورة مقتضبة، وهذا كل شيء!

ـ ولكن...

وأكملت بيث:

ـ بما أنني سأغادر إلى البندقية غداً، فهذا بالكاد يوفر لنا الوقت للبدء في علاقة غرامية جادة.

ـ وهل يجب أن تكون جادة؟.

لم تستطع بيث إلاّ الضحك على الاشمئزاز الذي أظهرته أمها. إذ

لم تكن كاترين تخفي ما تشعر به نحو الزواج والرجال، بعد انفصالها عن والد بيث منذ سنوات بعيدة. ومع أنها حظيت بما يكفي من الفرص لتغيير رأيها، إلاّ أنّها أصرّت على البقاء وحدها من دون رجل!

تنهدت وردّت: «هذا ما ظننته دائماً».

ـ والآن؟

قالت بتسامح: «الآن، أظن أن هنالك مبالغة في تقدير مسألة الحب والغرام».

فردت أمها باشمئزاز: «على الرجال أن يتحملوا نتيجة أعمالهم».

عندئذٍ علّقت بيث بتهكم:

ـ إذاً، لِمَ أنت مهتمة لهذه الدرجة، بأن أقيم علاقة مع رجل آخر، وأنت تعرفين أن هذا أيضاً ما يخالجني من شعور نحوهم؟

ـ لأنني تعلمت على مر السنين بعض القواعد الذهبية!.

فحثتها على المتابعة وقد ساورتها الشكوك:

ـ وما هي هذه القواعد؟

ـ إن أفضل وسيلة للتغلب على آثار علاقة حب فاشلة هي الدخول في علاقة جديدة. ولا يهم إن كان اختيار الرجل الثاني اختياراً خاطئاً، مثلما كان الاختيار الأول. فخلال هذا الوقت ستتفتح عيناك، وتدركين حقيقة الأمور!

ـ ماما!

سمعت أمها تتنهد وأيقنت أن وجهها الجميل قد تجعد بفعل التقطيب والتجهم:

ـ أعرف أنني المتهكمة الأصلية. لا، في الواقع، أنا لست الأصلية. ولكنه السبب الذي جعلني أتصل بك!

توترت أعصاب بيث فوراً استعداداً للصدمة العاطفية الآتية، بعد أن علمت تماماً عمن تتكلم أمها، وشدت قبضتها على سماعة الهاتف، وقالت بصوت خاوي، كأنه غير صادر عنها:

ـ ما الخبر؟.

في الواقع لم ترغب في سماع ما ستقوله أمها، ولكنها عرفت أن لا مفر من ذلك. وأدركت بيث أن أمها ما كانت لتتصل بها اطلاقاً، لو لم تجد ضرورة لذلك.

أخبرتها كاترين بصوت أجش: «تشارلز ومارتين يخططان لأمرٍ ما».

فشهقت بيث بعد أن سبب لها غرز أظافرها في راحتها ألماً حاداً. كان مجرد ذكر اسمي هذين الرجلين كافياً لتكديرها. حثت أمها وقد تصلبت شفتاها:

ـ هل لديك أي فكرة عما يخططان له؟

فأجابتها بتجهم:

ـ ليس بعد، ولكني عازمة على كشف الأمر!.

لن تتوانى أمها عن القيام بذلك، لا شك عند بيث بهذا.

فقد كانت حليفها الوحيد خلال السنة الماضية، وهي واثقة من أنها لن تتخلّى عنها الآن.. لقد فات الأوان لتقر في نفسها أنه كان عليها أن تثق بأمها منذ ثلاث سنوات... لقد فات الأوان الآن!

ساورها القلق لما يمكن أن يفعله هذان الرجلان، ولم يفعلاه من قبل.

وتابعت كاترين:

ـ لم أرغب في إزعاجك اطلاقاً، لكنني لم أشأ أن أدعهم يتعرّضون لك من دون إنذار.

تملك بيث الاضطراب بعد أن أيقنت أنه بإمكان مارتين وشارلز

مجتمعين، أن يكونا من غير رحمة على الاطلاق.

طمأنت أمها:

ـ أشكرك على تحذيرك لي، ولكنني لا أجد سبباً يستدعي إلغاء رحلتي والعودة إلى انكلترا.

لم تكن تشعر بالرغبة في العودة إلى انكلترا لمواجهة المزيد من قسوة هذين الرجلين. ووافقتها أمها الرأي.

ـ لا داعي لذلك، حتماً! باستطاعتك الاعتماد عليّ لرعاية مصالحك هنا.

كانت بيث تعرف قدرة أمها على ذلك، وهي لا تكنّ الضغينة لها، بعد أن تجاهلت نصائحها لثلاث سنوات خلت، عندما حاولت أن تفتح عينيها على حقيقة لم ترغب برؤيتها. لم تكن أمها من النوع الّذي يلوم قائلاً: لقد نصحتك، ثم يتركها تدبّر أمورها بنفسها.

لقد لعنت نفسها ألف مرة لأنها لم تستمع إلى نصائح أمها حينذاك، عندما حاولت أن تحذرها من مارتين، وتساعدها على رؤية حقيقة الرجل الذي يختبىء خلف قناع من السحر والجاذبية. لقد اختارت ألاّ تصدقها لأن حب هذا الرجل أعمى بصيرتها، ما كلفهاالكثير خلال السنة الماضية. وعلى الأرجح أنه سوف يكلفها المزيد والمزيد..

* * *

٣ ـ المظاهر تخدع أحياناً

البندقية، من أجمل مدن العالم. ومن المحزن أن يطويها النسيان شيئاً فشيئاً.

غير أن ذلك لم يكن ظاهراً لمّا وصلت بيث إلى هذه المدينة ووجدتها على قدر ما سمعته عنها... وأكثر.

ترددت قليلاً عندما اختارت أمها البندقية لتكون المحطة الثانية في رحلتها، لأن آخر ما ترغب فيه هو الأجواء العاطفية التي تلف هذه المدينة. ولكنها شعرت بسحر البندقية حالما خرجت من المطار وهي تبحث عن القارب الذي سيقلها إلى الفندق. كان كل شيء فيها حسب ما توقعته: مدينة مزدحمة وممتلئة بالحركة... وتجارية فوق المعتاد. مع ذلك، كان سحر المكان وهيبته يأسران قلب من يزورها.

أضاف فندق دانيللي الّذي نزلت فيه، الكثير إلى متعة هذه الرحلة. سمعت بيث بالطبع، عن هذا الفندق من قبل، وكانت تعرف أنه كان في الماضي قصراً فخماً تملكه عائلة دانيللي، والبناء بحدّ ذاته تحفة معمارية تكمله الزخرفة الداخلية المتأنقة والأثاث المتناسق.

زادت إطلالة غرفتها على النهر من روعة الاحساس بالمكان، وكان بامكانها أن ترى من الشرفة الحركة النشيطة على صفحة مياه «الغران كنال». أمضت بيث ساعتين على الشرفة تراقب المراكب

تجول، وقد أدهشتها كثرتها في قنوات المياه الضيقة، بدءاً بالجندولات وانتهاءً بالنحوت العصرية.

غامرت في النهاية وخرجت بعد الظهر من الفندق. عبرت الجسر القريب قبل أن تلاحظ أن الأشخاص المتجمعين فوقه كانوا في الحقيقة ينظرون إلى مكان ما.

حين تراجعت خطوة إلى الوراء، انكشف لها منظر جسر التنهدات الشهير. فكان كل ما تراه حولها يعبق برائحة التاريخ، مثل قصر الروع، وساحة القديس مارك، اللّذين يقعان على الضفة الأخرى من القناة.

كانت رؤية كل شيء دفعة واحدة أمر يفوق الخيال ويخدّر الحواس، وفضلت بيث أن تترك للغد استكشاف المزيد من معالم البندقية. فعادت أدراجها إلى الفندق، متوقفة بين الحين والآخر في أماكن تعرض فيها التذكارات السياحية البسيطة التي يمكن العثور على مثلها في أي منتجع في انكلترا. ولكن مع ذلك كانت جزءاً مكملاً لسحر البندقية.

شعرت بيث أن العريسين اللذين كانا يستقلان الجندول، يبالغان في محاكاة رومانسية المدينة.

كانت العروس ترتدي ثوب زفاف فضفاض من اللون الأبيض، وخمارها الطويل يتجرجر وراءها، وكانت جميلة وجذابة بشعرها الداكن. ولاحظت أن العريس الأسمر الوسيم لم يشح بنظراته عن عروسه، فيما كان الأقارب يلوحون لهما مودعين، عندما أخذ الجندول بالابتعاد على مياه الغران كنال.

سمعت صوتاً متهكماً من خلف ظهرها.

ـ أليس المشهد جميلاً؟

أغمضت بيث عينيها، ورأت أن الجندول الذي يحمل العروسين

اللّذين يحدقان إلى بعضهما بعضاً بحب، ما زال على مرأىً منها. كما لا تزال أصوات ثرثرة الناس من حولها تصم أذنيها.

مع هذا كله، سمعت ذلك الصوت وأدركت أنها لم تكن تتخيل، ولم تدرِ حتى لم تفاجأت في المقام الأول، وقد أدركت الآن أنها مُلاحقة.

استعادت رباطة جأشها قبل أن تستدير لمواجهة ماركوس غريفين. نظرت إليه بهدوء، فيما كان هو واثقاً باسترخاء واضح. بدا وسيماً ببنطاله الأسود الذي دس يداً في إحدى جيبيه، وقميصه الأبيض القصير الكمين، والمفتوح عند الصدر، مبرزاً لون الاسمرار الذي أكسبته إياه أشعة الشمس. كان مظهره رجولياً وقوياً... مفعماً بالحيوية بصورة ساحرة.

قالت بيث بجفاء:

ـ في الواقع كنت أفكر أن العروسين يغالون، نوعاً ما، في محاكاة الصورة الرومانسية للبندقية.

ـ لا يبدو أنك تفاجأت لرؤيتي.

فرفعت حاجبيها الشقراوين: «وهل من المفترض أن أتفاجأ؟».

كانت تغلي غضباً لالتقائها به مرة أخرى، وقفزت كل أنواع التساؤلات والظنون إلى ذهنها. ما الذي يفعله في البندقية؟ وفي نفس اليوم الذي وصلت فيه إلى هنا. هل يلاحقها؟ وما السبب، إن كان ذلك صحيحاً؟ لا يمكن أن تصدق أن كل ذلك مجرد صدفة.

قطعاً، إنه لا يلاحقها سعياً وراء أي أموال يظن أنها تملكها، خاصة أنه يبدو أكثر ثراءً مما تبدو هي عليه... إلا إذا كان ما هو عليه مجرد «مظهر خارجي»، ومن النادر أن يظهر صائدو ثروات النساء بمظهر الفقراء، وإلا لما استطاعوا مقابلة تلك الثريات واليائسات اللّواتي يخدعنهن بسهولة. لكن رغم هذه الأفكار، كان

عندها شك كبير بأن ماركوس هو من صنف أولئك الرجال...

تابعت تقول:

ـ لا يبدو عليك أيضاً أنك تفاجأت لرؤيتي ثانية؟

فرد عليها بالمثل: «وهل من المفترض أن أتفاجأ».

أطبقت بيث شفتيها، لأنها لم تكن على استعداد لمتابعة مثل هذه المحادثة السخيفة والصبيانية مع هذا الرجل، علماً أنها تفضل ألاّ تتحدث معه البتة.

أجابته بنبرة لاذعة:

ـ من الواضح أنه ليس مفترضاً.

هز ماركوس كتفيه والتفت إلى القارب الذي يحمل العروسين، والذي بدأ يتوارى عن الأنظار، فيما كان المدعوون يتفرقون، كلّ في سبيله. أشار برأسه نحو الجندول، وسأل:

ـ ماذا عنيت بملاحظتك؟ فمغادرة العروسين بهذه الطريقة، أمر شائع جداً هنا.

هزت رأسها وهي تقول: «أتعني أن ذلك الزفاف حقيقي؟».

فرد عليها متهكماً:

ـ طبعاً هو كذلك! هل ظننت أنه مجرد تمثيلية لتسلية السياح؟

علا الاحمرار وجهها، وشعرت بالغباء لأفكارها، فأقرّت قائلة:

ـ بصراحة.... نعم!.

ولكن مشهد العروسين وهما يبحران بعيداً، بدا لها رومانسياً بشكل لا يصدق. هل يقيم سكان البندقية أعراسهم على هذه الطريقة فعلاً؟ لو فكرت بصورة منطقية، لأدركت أنه لا توجد طريقة أخرى لمغادرة العروسين السعيدين، غير هذه الطريقة.. كم هذا ساحر و... رومانسي. أجل، إنه مشهد رومانسي.

راقب ماركوس انفعالاتها، وقال ببطء عندما انفرجت أساريرها:

ـ لا عليك، فلهذا المشهد، التأثير ذاته على معظم الناس!.

ولكن ليس عليها، فهي آخر شخص يمكن أن يؤثر به هذا الهراء الرومانسي!.

رمقته بنظرة باردة وردت عليه بنبرة لاذعة:

ـ إن كان هذا الأمر تقليداً... لا يمكنني القول بأنني سررت لرؤيتك ثانيةً يا سيد غريفين، لأنه...

أنهى عنها الجملة بنبرة جافة، وعيناه ممتلئتان بالسخرية:

ـ فعلاً، إنه كذلك!.

ثم عرض عليها بخفة:

ـ ربما باستطاعتي مرافقتك إلى الفندق؟.

اعتبرت رفضها لهذا العرض مضيعة للوقت، لأن الفندق يقع على بعد خطوات منهما، لكنها لم تشأ من ناحية أخرى أن تكشف له، على وجه الخصوص، عن مكان إقامتها. هذا إذا لم يكن قد عرف ذلك آنفاً! كانت متأكدة أن لقاءهما ثانية بهذه الطريقة ليس مجرد صدفة، فتضايقت من ذلك.

رفضت بلهجة صارمة: «ليس هذا ضرورياً!».

فقال مستهزئاً: «لا عناء في ذلك».

عندما نفد صبر بيث، انتفضت قائلة: «لم أشك لحظة في ذلك يبدو لي أن لديك الكثير من الوقت لتضيّعه، ولكن الآخرين ليسوا محظوظين مثلك!».

رفع حاجبيه وقد ملأه الفضول: «هل أنت هنا في عمل؟».

فزمت شفتيها وقالت مراوغة: «ليس تماماً!».

لا يمكنها أن تعتبر زيارة المحل الذي تمتلكه أمها في البندقية، بمثابة عمل فهي تقوم بذلك لمجرد التوفير على أمها السفر إلى البندقية في وقت لاحق من السنة.

ـ هل جئت إلى البندقية للمتعة أم للعمل، يا سيد غريفين؟

رد عليها بإيجاز، وقد بدا عليه الارتياح، رغم أن بعض التشنج بقي يشوب ابتسامته:

ـ بصراحة، لم أعد أدري على وجه اليقين! ولكن دعينا من هذا الموضوع. إن كنت لا ترغبين بالعودة إلى الفندق الآن، فربما أستطيع دعوتك لتناول شراب بارد في مكان ما؟

أدركت بيث على مضض أن كلمة المثابرة لا يمكن أن تصف ما هو عليه هذا الرجل.

لم اختارها هي؟ لم تستطع معرفة السبب.

لم تفكر يوماً بأن جمالها من النوع الذي يدفع رجلاً إلى هذا الإلحاح، وكانت تعي تماماً أنها لا تبدو في هذه الفترة في أحسن حالاتها. فقد أصبحت في الآونة الأخيرة هزيلة الجسم وناحلة الوجه، أكثر مما يفترض في مقاييس الجمال الحالية. ولكن لم يبدُ أن ذلك قد ردع هذا الرجل.

ـ سيد غريفين...

قاطعها بنعومة: «ماركوس، من فضلك!».

لم تجد مفراً غير مقابلته بالمثل! فردت باقتضاب، وهي غير راضية البتة عن هذه الغارة المتواصلة على خلوتها:

ـ وأنا... بيث.

أمعن النظر إلى وجهها الرقيق وقال ببطء:

ـ بساطة اسمك النقية وجماله، ينطبقان عليك.

لم تفكر بيث قط باسمها على هذا النحو، أو على نحو آخر... كان لها مجرد اسم فقط.

قال بجدية: «أخبريني، أين تقيمين في جزيرة مان؟».

أجفلها هذا التغيير المفاجىء في مجرى الحديث، وبدا ذلك

جلياً على وجهها.

ذكرها بما قالته سابقاً، حين لم يقابل إلاّ بالصمت.

ـ لقد قلت إنك «مانية».

تذكرت ما قالت وأقرت بإيجاز:

ـ هذا صحيح. ولكنني لم أقم في الجزيرة منذ سنوات. أنا أقيم في لندن حالياً.

فلوى فمه، وقال: «هذا غنيّ عن القول!».

لم تعد تتباهى بالإقامة في لندن. في الحقيقة، كان أحد أسباب رحلتها، الحصول على الوقت الكافي للتفكير فيما إذا كانت ستعود إلى مسقط رأسها أم لا. كانت مترددة في اتخاذ قرارات مصيرية، إذ كانت مضطربة نفسياً. لكن لم يتسنَّ لها الوقت في التفكير بهذه المسألة، وهذا الرجل يلاحقها باستمرار!.

ردت عليه باستخفاف:

ـ إنه يتلاءم مع ما أنا عليه في الوقت الحاضر. أرغب حقاً بالعودة إلى الفندق.

هز ماركوس رأسه: «سأرافقك!».

التفتت إليه وعيناها تقدحان شرراً: «لقد قلت إن ذلك ليس ضرورياً!».

فلوى فمه باستهزاء: «على أي حال، أنا ذاهب إلى هناك».

فنظرت إليه متفاجئة، وتأكدت من أن ما يقوله صحيح. فهو يقيم في فندق دانيللي، ويعرف أيضاً أنها تقيم في الفندق ذاته. شعرت بالحنين إلى الحياة في لندن وأحسّت بأن هذا الرجل يدفعها إلى مغادرة ايطاليا.

قالت له بنبرة غير مهذبة، وهي تستدير للعودة إلى المبنى الأبيض والوردي الذي يقع على بعد خطوات من ضفة النهر الأخرى: «افعل

ما يحلو لك!».

فغمغم بلطف بعد أن أصبح إلى جانبها، رغم خطواتها السريعة:

ـ هذا ما أفعله عادة!

لم يكن عند بيث أدنى شك في اعتياد هذا الرجل على التعامل مع أسوأ أشكال العنجهية، ووجدت الضغط الذي يمارسه عليها شديداً، يقطع الأنفاس. كان الفندق هادئاً، وغير مزدحم بالناس. رمقهما موظفو الاستقبال بفضول حالما اقتربا، وشعرت بيث بالانزعاج، إذ بدا بوضوح أن ثمة علاقة بينهما.

تعمدت الاتجاه نحو المصعد حالما نزلا السلم، ولاحظت أن ماركوس غريفين توقف إلى جانبها، فالتفتت إليه متعجبة.

أوضح بجفاء:

ـ غرفتي في هذا الطابق، فقد تدبرت أمر الحصول عليها بعد أن ألغى أحد الأشخاص حجزه.

توقفت يدها وهي على أهبة الضغط على زر المصعد. وبدا على وجهها التجهم والحيرة:

ـ هل كان مجيئك إلى البندقية مجرد نزوة؟

لوى فمه وأجاب: «يمكنك قول ذلك».

أخذت نفساً وقد شعرت بأنها هي من دفعه لاتخاذ ذلك القرار الفوري:

ـ هذا ما قمت به.

ولكن ما السبب؟ بدا لها اعتماده على لقائين غير مرحب بهما في فيرونا، أمر غريب جداً. من المؤكد أن هذا الرجل ليس متكبراً إلى درجة التصرف على هذا المنوال؟ لم تستطع التصديق أنه يلاحق أي امرأة جذابة يجدها من مدينة إلى أخرى.

قال هازئاً: «هكذا اذن!».

قالت له: «نعم».

وهي مرتبكة من فكرة ملاحقته لها في كل مكان.

رفع حاجبيه وسألها مستفهماً:

ـ ما رأيك لو تناولنا العشاء معاً هذا المساء؟

شعرت أن ملاحقة هذا الرجل لها لا يمكن وصفها بالمطاردة.

تجنبت الرد المباشر: «لم أقرر بعد ما الذي سأفعله».

ابتسم لها معاتباً:

ـ طبعاً لا. أتعرفين أنني سأصاب بالاحباط إذا واصلت التلميح أنك تفضلين تجنب رفقتي؟

ردت بيث متشدقة:

ـ وهل حسبت ذلك مجرد تلميح؟ وأنا ظننت كلامي واضحاً كعين الشمس، ما أسخفني!

ابتسم رغماً عنه وقال: «أظنك تناسبينني تماماً».

ثم هز رأسه متحسراً، وتحولت ضحكته إلى ابتسامة ازدراء.

صرفته عنها بقولها:

ـ إذن من المؤسف ألاّ تسنح لك الفرصة للتحقق من ذلك.

بقي صدى ضحكته يترجّع في القاعة العالية السقف عندما دخلت المصعد.

ساورها شعور بأنها جعلت اهتمامه بها يزداد. والله وحده يعرف ما هي النتائج التي ستترتب على ذلك!.

شعرت بيث بالقلق وارتأت أن الحلّ الأنسب لها هو قطع رحلتها والعودة إلى الوطن.

وربما أنسب عمل تقوم به، هو تجنب ماركوس غريفين. لكنها لن تقدم على ذلك، لعدة أسباب وجيهة. أولاً، لن تسمح لنفسها بالفرار من أي شيء أو أي شخص. ثانياً، ليست مجبرة على قضاء

وقت مع أي شخص لا ترغب به، مهما كان لجوجاً. وثالثاً، لا شيء يضمن لها أنه لن يلحق بها إلى انكلترا ويتابع تحرشه بها وازعاجها! والسبب الأخير هو أن مسألة هروبها من البندقية لا طائل منها اطلاقاً.

ولهذا احتاجت إلى سماع صوت يعيد إلى نفسها الطمأنينة.

حينها أمها بحرارة عندما تلقت مكالمة بيث في مكتبها:

ـ كيف وجدت البندقية؟

أقرت بلهفة:

ـ ساحرة! لم أكن أصدق أنها بهذه الروعة، ولكنها كذلك.

تابعت بيث لتخبر أمها عن حفل الزفاف الذي رأته.

ردت أمها بحماس:

ـ يا له من مشهد رائع، يا عزيزتي!.

تخيلت بيث أمها جالسة خلف طاولة مكتبها المصنوعة من الزجاج ومعدن الكروم ببذلتها الأنيقة، والجدية بادية على محياها.

ـ في الواقع أنا مسرورة لأنك اتصلت بي. فقد وددت اخبارك أنني سأتناول طعام العشاء مع تشارلز هذا المساء، ومن المفترض أن أعرف منه ما الذي يحيكه مع مارتين.

كانت كاترين، أم بيث، لا تضيع وقتاً في ملاحقة شيء ما إن تصمم على ذلك، حتى لو كان ذلك يتطلب منها أن تمضي وقتاً مع رجل تحتقره أكثر من أي رجل آخر... والد بيث.

التقى تشارلز بالمرأة التي رغب بها، منذ خمس وعشرين سنة. فتودّد إليها ثم تزوجها وعاملها منذ ذلك اليوم وكأنها إحدى موجودات الشركات التي يملكها!.

خاب ظنه عندما أنجبت له البكر بنتاً. ورغب في أن تحمل ثانيةً وعلى الفور، إذ كان يريد صبياً ليرث أمواله وأعماله. ولم يصدق حين أخبرته كاترين بأنها ترفض أن تطيعه إلى أن يعاملها كإنسان.

ودام عناد كاترين طويلاً، فتحوّل تكدّره بسرعة، إلى غضب، والغضب إلى ثورة عارمة، إلى أن طالبها تشارلز بالعودة إلى رشدها. فما كان من كاترين إلاّ أن حزمت أمتعتها وأمتعة بيث وانتقلت وإيّاها إلى جزيرة مان.

لحق بهما تشارلز، لاجئاً إلى الترهيب تارةً إلى الترغيب تارةً أخرى.

لكن محاولاته باءت بالفشل، لا سيّما أنه كان يفتقر إلى الرقة، وأدركت كاترين أنه لن يتغير، فهو لا يسعى إلاّ إلى تحقيق طموحاته.

كان الطلاق الحل الأخير بالنسبة لتشارلز، إذ لم يكن ينوي تسليم أي جزء من أمواله ومقتنياته إلى زوجته السابقة، وابنته. كما لم تهتم كاترين بالزواج مرّة أخرى، بعد الدرس الذي لقنها إيّاه حول الحب والزواج المصحوبين بالآلام. لكنها تعلمت من هذا الزواج شيئاً آخر غير الألم... التصميم. وهكذا أصبحت مع الوقت امرأة أعمال ناضجة بجدارة، الأمر الذي أشعل غيظ تشارلز جداً. فلم يكن ليسرّه أي شيء أكثر من أن تلجأ إليه كاترين لطلب المساعدة المالية... على الأقل.

ولكن على الرغم من توتر العلاقة بين الزوجين، بقيا على اتصال ببعضهما البعض. فقد صممت كاترين على أن يبقى تشارلز على اطلاع بأحوال ابنته، رغم أنه لم يبدِ اهتماماً خاصاً بها. وكان من الممكن أن يوفر على بيث الكثير من العذاب لاحقاً، لو أنهما بقيا بعيدين عن بعضهما البعض!.

لكن الأخطاء التي وقعت بها بيث جاءت نتيجة لقرارات اتخذتها بنفسها. فبعد أن تخلّى والدها نهائياً، بعد سنوات من الفراق مع والدتها، عن فكرة انجاب الابن الذي يريد أن يخلفه، قرر أنه بإمكان الابنة أن تخلفه. حاولت أمها أن تحذرها، ولكن اهتمام والدها

المفاجىء بها غمرها، فلم ترَ الخطر في ذلك إلا بعد فوات الآوان.

غير أنها قدرت بعد ثلاث سنوات، تحذير أمها لها، وبدا لها بوضوح أن كاترين تعرفه أكثر من أي شخص آخر.

حذرت بيث أمها من باب القلق عليها: «إحذري منه».

فردت أمها موبّخة:

ـ لم أعد أخاف تشارلز منذ سنوات. لدى والدك نقطة ضعف وحيدة، هي الامبراطورية التي بناها مع شون كارليل. ويوماً ما ستقضي عليه.

ـ أشك بذلك. إذا كنت ستتناولين العشاء معه فقط من أجلي، فلا تكلفي نفسك عناء ذلك، لم يبق عنده شيء يمكنه أن يؤذيني به.

قالت كلماتها الأخيرة من دون مرارة لأنها كانت تسرد واقع الحال. فلم يعد والدها قادراً على إيذائها بأي شيء يقدم عليه.

وتابعت كاترين تقول:

ـ أريد أت أعرف ما الذي يدبره، وقد اخترت تناول العشاء في أغلى مطعم في لندن. فلا شيء يسرني ويشرح صدري أكثر من رؤية والدك يدفع بعضاً من ماله الغالي على قلبه!

ارتسمت ابتسامة حسرة على وجه بيث. لقد عاشت أمها سنوات طويلة من العذاب مع والدها، بحيث لم يعد تشارلز يزعجها أبداً. أمّا هي، فلا يزال ألمها طرياً، وما زالت تشعر بالرعشة والاضطراب كلّما فكرت به.

ـ سأتصل بك حالما أعرف أي خبر، يا عزيزتي. حتى ذلك الحين، استمتعي بوقتك في البندقية!.

لم تدرك بيث أنها لم تخبر أمها بأن ماركوس هو في البندقية أيضاً، إلا بعد أن وضعت سماعة الهاتف. ولكن ربما ذلك أفضل، لأن أمها لن تترك الموضوع، حتى تعرف تفاصيله كلّها.

وجدت بيث تناول العشاء على شرفة فندق دانيللي، تجربة لا تنسى.

أطلّت من موقعها على الغدير والـ «غران كانال» المتلألئين بالأضواء، وعلى كل أنواع المراكب التي لا تزال تمخر عباب المياه.

وشعرت بيث بالارتياح للهدوء والسكينة اللذين كانا يلفان روعة المكان المحيط بها. كانت تجلس على طاولة وضعت عليها زجاجة عصير، وتتصفح قائمة الطعام. وقد ألهاها جمال المكان عن التمعن جيداً في القائمة.

لم تتكدّر لرؤية ماركوس غريفين، بل التفتت نحوه وقالت له بوداعة:

ـ لن تستطيع أن تفسد علي هذه اللحظات المميزة.

ـ أنا سعيد لذلك!.

جلس إلى الطاولة قبالتها، ورأت أنه يرتدي بذلة سهرة، وقميصاً أبيض عكس بصورة كبيرة الاسمرار الذي اكتسبه. ثم أومأ برأسه للنادل الذي هرع ليصب له كأساً من زجاجة العصير التي طلبتها بيث.

بدت هادئة ومسترخية، وقالت ساخرة:

ـ تفضل! اشرب يا ضيفي!.

غمغم برقة وهو يعدل في جلسته ليصبح وجهه على بعد بضع سنتيمترات من وجهها:

ـ في الواقع.. أنت ضيفتي. لقد حجزت هذه الطاولة لكلينا باكراً.

لم تدهش لهذا الأمر، فهذا ما كان عليها أن تتوقعه من سلوكه المتكبر والعنجهي. كما لم تغضب، لأن جمال المكان المحيط بها خدّر حواسها.

أشار إلى قائمة الطعام الموضوعة أمامها وقال:

ـ هل اخترتِ ما الّذي ستتناولينه؟

فأشاحت بنظراتها نحو الغدير وقالت:

ـ في الحقيقة، أنا لست جائعة.

قلّما كانت تشعر بالجوع في هذه الأيام، لذا هبط وزنها كثيراً. لذلك كانت أمها تطعمها أكثر المأكولات دسامة، كلّما جاءت لتناول طعام العشاء عندها.

هزت كتفيها، وأعادت قائمة الطعام إلى الطاولة:

ـ سأكتفي بالسلطة.

نظر إليها ماركوس نظرة ساخرة قبل أن يلتفت إلى النادل الذي كان واقفاً بهدوء إلى جانبها. ثم طلب الطعام الذي اختاره بلغة إيطالية سليمة، ما جعل النادل ينظر إليه بإعجاب قبل أن يغادرهما.

قالت بيث:

ـ أرى أنك تعلمت أيضاً بعض الأشياء المفيدة من جدتك الإيطالية.

لمعت عيناه وقال: «كانت جدتي دوماً، فخورة بأصلها».

أدركت بيث من استعماله صيغة الماضي أن جدته متوفية. ومن الواضح أن ماركوس كان يحبها حباً جمّاً. جعلها هذا تنفذ إلى خصوصيات هذا الرجل، وتتبصر في مواطن ضعفه. لكنها كانت تفضّل ألا يعلم بأسرارها.

اختار ماركوس سلطة لذيذة جداً أعجبت بيث. فلم تستطع أن تكبح اعجابها بذوقه.

ابتسم لها وقال: «شكراً».

جعلته الابتسامة يبدو أصغر سناً وأكثر جمالاً.

كانت مستمتعة بصحبته، وهذا ما لم تفهمه.

وسرعان ما استدركت أنه قد يفسر زهوها الظاهر على أنه تشجيع له للمضي في التحرش بها. يجب أن تقاوم سحر البندقية وشاعريتها، إذا كانت تنوي مقاومة ماركوس غريفين.

لكن ذلك كان صعباً، صعباً جداً. وكانت على يقين بأن نساءً أقوى منها فشلن في مقاومة مناخ البندقية المضاءة بأشعة القمر الشاعري. النسيم العليل يتلاعب شعرها، بينما كانت تستمع إلى حديث ماركوس عن عجائب هذه المدينة. وقد أكد لها أنه يمكن الوصول إلى ساحة القديس مارك عبر جسر التنهدات، ودعاها للذهاب إلى الساحة بعد الانتهاء من تناول العشاء، . . هذا إن شاءت.

إنّ التنزه تحت ضوء القمر، في تلك المدينة المشهورة برومانسيتها وشاعريتها، لا يناسبها بتاتاً.

فرفضت بتهذيب: «لا أظن ذلك. شكراً، على أي حال!».

نظرت إلى الساعة التي تلف معصمها وأضافت:

ـ في الحقيقة، أظن أن الوقت قد حان لأخلد إلى النوم. لقد كان يومي طويلاً!.

رمقها ماركوس بنظرة عتاب وقال:

ـ لا تبدين متعبة.

فردت عليه بحزم: «المظاهر تخدع أحياناً».

تجهم وجهه، ثم رد عليها وهو يشير إلى فنجان القهوة الفارغ أمامها:

ـ طبعاً، إن أنهيت شرب القهوة. . ؟.

رمقته بيث بحيرة. . . ما السبب في تغيّر مزاجه فجأة؟ فهي لم تعامله بذلك الجفاء الذي كانت تعامله به من قبل، ومع ذلك تقبّل الرفض هذه المرة من دون أي جدال.

شعرت بالخيبة... لا، لم تكن الخيبة، بل الدهشة. لكنها كانت على حق في أنه رجل ذكي ولقد استمتعت وتمتعت بصحبته رغماً عنها.

نظرت إليه مستفهمة عندما دخلا المصعد وضغط على زر الطابق الّذي توجد فيه غرفتها، بدلاً من الطابق الّذي توجد فيه غرفته، فقال لها:

ـ أنا دائماً أرافق السيدة التي أمضي معها السهرة إلى باب منزلها.

دائماً؟ فكرت باستهزاء. وهي تشك كثيراً في كل أولئك السيدات اللّواتي عدن إلى منازلهن في نهاية السهرة التي أمضينها في صحبته!

التفتت إليه حين بلغا باب غرفتها وقالت: «شكراً للعشاء!».

فرّد عليها برقة: «على الرحب والسعة. دعيني أريك البندقية على حقيقتها غداً».

تململت، ولكن رنين الهاتف من داخل غرفتها أنقذها، فقاطعته:

ـ يجب أن أذهب!

وافقها وقد بدا عليه نفاد الصبر والغيظ من هذه المقاطعة:

ـ طبعاً، سأكون بانتظارك غداً في بهو الاستقبال عند الساعة العاشرة صباحاً!.

ـ عذراً؟

ردّت عليه وانتباهها مركّز على رنين الهاتف الذي بدا أكثر إلحاحاً مع مرور الثواني.

أضاف بسرعة: «سأقابلك هناك!».

ـ ولكن...

ـ يجب أن تجيبي على الهاتف!

أخذ مفتاح غرفتها من يدها، وأعاده إليها بعد أن فتح لها الباب.

ـ ليلة سعيدة يا بيث!.

قم قبّل جبينها ببطء، ودفعها برفق إلى داخل غرفتها، وأغلق الباب.

وقفت بيث داخل غرفتها وقد أذهلتها المفاجأة. وضعت يدها ببطء على جبينها حيث لامستها شفتيه. كانت قبلته من أقصر القبل، ومع ذلك كان لها مفعول صعقة كهربائية سرت في كامل جسمها.

لقد كانت... أوه، اللعنة! الهاتف!

حدقت إليه باستياء فيما كان رنينه يتواصل بإلحاح. ماركوس على حق، يبدو أن من يطلبها مصمم على التكلم معها. وبالطبع إنها أمها...

أوه، يا إلهي! ما الأمر الهام الذي اكتشفته أمي لتتصل بي في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

* * *

٤ ـ جراح لم تندمل

نهرتها أمها بعد أن التزمت بيث الصمت:

ـ حسناً، أليس عندك ما تقولينه؟!

تنهدت بيث وهي تجلس على حافة السرير وقالت:

ـ ما عساي أن أقول؟

صاحت أمها بها:

ـ ما عساك قوله...؟ ما الذي...؟ ألم تسمعي ما قلته لك... سيوصي تشارلز بثروته لمارتين بدلاً منك!

سمعت ما قالته أمها في المرة الأولى، وكانت تتوقع ذلك. من المنطقي أن يتصرف والدها على هذا النحو، فهو يظن أن ابنته قد خذلته، ولم يعد الآن بحاجة إليها. لم تشعر أنه يريدها أن تكون وريثته.

ـ كنت أتوقع ذلك، يا...

فقاطعتها أمها بغضب:

ـ أمّا أنا فلا. كدت أصفع تشارلز عندما أخبرني عما يخطط له. ولكنت فعلت ذلك لو لم أكن أعرف أن مثل هذا التصرف سيشعره بالرضى. لكنّني أعطيته رأيي في فكرته بصراحة.

حثت بيث أمها على المتابعة بنبرة جافة: «وبعد ذلك؟».

ـ أخبرني أن ذلك ليس مجرد «فكرة»، وأنه سرعان ما سيصبح أمراً واقعاً!

طبعاً سيفعل ذلك. لم يكن والدها ليخبر أمها عن خططه، لو أنها كانت قادرة على إحباطها بأي طريقة.

حاولت بيث إنهاء الموضوع:

ـ إذن يبدو أن هذا ما سيكون الأمر عليه، أليس كذلك؟

في الواقع، شعرت بيث بالراحة لسماعها ذلك، فقد كانت ترغب بقطع كل علاقة تربطها بوالدها، وكانت هذه رغبة والدها أيضاً.

ـ لا، قطعاً لن يكون كذلك. هل تعتقدين أنني سأتقبل هذا الأمر بخنوع. هل تظنين ذلك؟ لأنني أؤكد لك أنني لن أرضى بذلك! وأعتقد أنه يجب أن تعودي إلى هنا...

ـ ماما...

صرخت بها أمها وقد نفد صبرها عندما أدركت أن بيث تحاول التهرّب: «على متن أول طائرة مقلعة!».

ـ ماذا... ماذا تريدين أن تقولي؟

أخذت نفساً عميقاً، وهي على يقين من أن أمها لن يعجبها ما تقوله:

ـ ماما، لا يهمني إطلاقاً أن أكون وريثة با...

كانت لا تزال تجد صعوبة في التفكير به على أنه والدها، وتتلعثم عند مناداته بـ «بابا»، وقررت في النهاية ألاّ تناديه بأي شيء. أضافت وهي تشعر بالسعادة، لأنه لن يعود هنالك أي رابط يربطها بوالدها:

ـ أنا سعيدة أن كل شيء انتهى أخيراً!

وكانت سعيدة فعلاً.

فردت أمها بحنق:

ـ لم أبقَ متزوجة من والدك كل هذه السنوات، ليحرمك في النهاية من الميراث بكل سهولة.

ـ ولكنني لا أريد ماله يا أمي...

فقاطعتها أمها:

ـ ولا أنا، لكنني لا أنوي أن أترك مارتين يحصل عليه!.

مارتين... حاولت بيث جهدها ألاّ تفكر به في الأيام القليلة الماضية، وكان ذلك ضرورياً، لكي تستمتع بعطلتها.

أخبرت أمها بمرارة: «أظن أنّه يستحق ذلك».

ـ أوه، يا حبيبتي...

كانت لا تزال تشعر بالجرح الذي سببه لها مارتين، ولا ترغب بالتكلم عنه:

ـ دعك من الأمر!. أنا آسفة حقاً لأن هذه الأخبار كدّرتك، ولكن أرجوك ألاّ تفقدي صوابك من أجلي. فأنا سعيدة لقطع أي علاقة تربطني بوالدي.

ربما تحقق هذا الأمر الآن. ومن الآن وصاعداً لم يعد لديها أي سبب لرؤية والدها أو مارتين مرة أخرى.

طمأنت أمها: «بصراحة، أنا أشعر بالارتياح».

شعرت بيث أن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلها. بذلت أقصى جهدها لتكون الابنة التي يرغب والدها أن تكونها، ولكنها منيت بفشل ذريع في النهاية. والآن لا يدين كلاهما للآخر بأي شيء. ها قد تحررت منه تماماً.

أخبرتها أمها من دون فائدة: «وأنا أشعر بالرغبة في قتل أحدهم!».

بدا واضحاً من نبرة صوتها أنها غاضبة، وتابعت تقول:

ـ إن كان هذان يظنان أنهما سينجوان بفعلتهما، فهما مخطئان!

تمنت بيث لو لم تكن أمها ثائرة إلى هذا الحد بشأن هذه المسألة، وبدا لها أنه من غير المحتمل أن تتراجع عن موقفها. ربما كانت كاترين على حق في ذلك، إلا أن بيث كانت تفضل أن تنسى الموضوع.

ـ باستطاعة أبـ... تشارلز أن يوصي بثروته لمن يشاء.

فردت أمها وهي تكاد تنفجر غيظاً.

ـ لا! ليس لمارتين أبداً!

كانت بيث تشعر بالاضطراب كلّما أتت أمها على ذكر الرجلين، فقالت:

ـ ماما، هل يمكن أن نؤجل المناقشة في هذا الموضوع لحين عودتي؟

ـ عندئذٍ، سيكون الأوان قد فات!.

ردت بيث باقتضاب:

ـ هل تشكّين بأن تشارلز يعتزم الموت خلال الأسبوع القادم؟

نعم، لقد وجدت أنه أسهل عليها بكثير أن تدعوه بـ «تشارلز». لقد عاشت فترة طويلة من حياتها بدون أب، ولم تعرف بتشارلز إلا لفترة وجيزة. ولكنه لم يكن أباً حقيقياً لها، ولم يرغب قط أن يكون، ولن يكون كذلك أبداً.

فقدت كاترين صبرها ثانيةً:

ـ مهما يكن، فأنا لن أسمح له أن يفعل ذلك بك! لقد أذاك بما يكفي.

فقالت بيث بصراحة تامة:

ـ أنت حرّة في تصرفاتك. أفهمك جيداً، ولكن لا أريد التورط في هذا الأمر. وهذا الشجار بالذات هو بينك وبين تشارلز.

تنهدت كاترين وقالت:

ـ حسناً يا عزيزتي، أنا أدرك سبب شعورك هذا، ولكن والدك هو من يجلب ذلك لنفسه.

شعرت بيث بنذير الشر على الفور، فسألتها:

ـ ما الذي يجلبه لنفسه؟

ردت أمها ببطء:

ـ أنا غير متيقنة بعد، ولكنني لن أترك الأمور تجري على غاربها.

ترسخ شعور بيث بعدم الاطمئنان وقالت: «دعي كل شيء على حاله يا أمي!».

ردت أمها وقد بان من نبرة صوتها أنها منشغلة البال.

ـ لا تفكّري بهذا الموضوع يا ابنتي، واستمتعي بعطلتك! أنا بانتظار عودتك بعد عشرة أيام.

ـ ماما...

ـ لقد أقنعتك بأخذ هذه العطلة على أمل أن تكفي عن التفكير بتشارلز ومارتين لفترة اسبوعين على الأقل، وها أنا الآن أثير هذه المسألة معك ثانية.

شعرت بيث بأن أمها ممتعضة من نفسها وهي تتابع.

ـ كل ما في الأمر أنني غاضبة جداً. سوف نبحث في ذلك بعد عودتك.

ـ ماما....

لكن الأوان كان قد فات، إذ أقفلت أمها الخط، من دون أن تسمع جوابها.

أعادت بيث سماعة الهاتف إلى مكانها ببطء. بإمكانها أن تعاود الاتصال بأمها حالاً، ولكن ما الفائدة من ذلك؟ إنها تعرف أمها بما يكفي لتدرك أن ذلك لن يجدي نفعاً على الاطلاق.

ولكن بيث ما زالت تشعر بعدم الاطمئنان، وكأن الآتي أعظم.

وبالطبع يمكنها العودة إلى بلدها على متن أول طائرة متجهة إلى انكلترا كما اقترحت أمها، ولكنها لا ترغب فعلاً بالعودة سريعاً، خاصة وأنها بدأت تستمتع بعطلتها.

لم تجرؤ بيث على التفكر في ما أصبح يعنيه ماركوس غريفين لها، وعادت إلى ذهنها صورة قبلته لها. ما كان يجب أن تدهش لهذا التصرف بعد أن أصر على مرافقتها. مع ذلك، كانت ردة فعلها عفوية بدلاً من أن تكون عقلانية. رغم أنها تجاوبت باختصار.

ما الذي كان يمكن أن يحدث لو لم تتصل أمها في تلك اللحظة؟

لا شيء! قالت لنفسها بحزم. لقد تعلمت من تجاربها القاسية ألا تثق بأحاسيسها التي خذلتها عندما كانت بأشد الحاجة إليها؟

ولكن هل يجب أن تتجاهل أحاسيسها الأولى بعدم الثقة بماركوس غريفين؟ لم تجد جواباً لتساؤلاتها.

لقد أصغت إلى أحاسيسها منذ ثلاث سنوات، وتجاهلت تحذيرات أمها لها من تشارلز.

عاشت بيث معظم حياتها بهدوء، مع أمها على جزيرة مان. وكانت تستلم من والدها كل سنة، بطاقات معايدة مقتضبة في مناسبات عيد الميلاد وذكرى ميلادها، مصحوبة بهدية مناسبة لعمرها. كانت ترد عليه دائماً برسائل مهذبة تشكره فيها على لفتته نحوها. ولم يتعدَّ اتصالهما ببعضهما البعض ذلك، طيلة تلك السنوات. لم يتبادلا الزيارات، ولم يكن بينهما اتصالات هاتفية.

ولكن الوضع تغير بعد أن تجاوزت سن الواحدة والعشرين، فقد اتصل بها والدها، وطلب منها أن تأتي لزيارته في لندن. حارت بيث ولم تعرف ماذا تقول له. ولكن أمها كانت تعرف ما يجب أن يكون الرد، مع ذلك تقبلت الأمر عندما تملك الفضول بيث، فرتبت لها الاجتماع مع والدها في الأسبوع الذي تلا.

أحجمت أمها عن الكلام عندما أخبرتها بيث عن دعوة والدها لزيارته، رغم أن معرفتها التامة بتشارلز أغرتها بشدة لتثبيط همة بيث من الاقتراب منه بأي شكل. لكنها كانت تدرك أن ابنتها يجب أن تختبر هذه الأمور بنفسها، وأنه لم يعد باستطاعتها أن تحميها من ذلك.

وجدت والدها خمسينياً فاتناً وساحراً بشعره الأبيض وعينيه الثاقبتين مثل الفولاذ.

أمضت عطلة الأسبوع الأولى معه في دوامة من حفلات العشاء والمناسبات الاجتماعية، حيث كان والدها يقدمها إلى أصدقائه بفخر واعتزاز.

واكتشفت أن مارتين برادشو، مساعد والدها، يلاحقها دوماً في هذه المناسبات. كان رجلاً طويل القامة، أشقر الشعر، ذا عينين زرقاوين تتوسطان أحد أكثر الوجوه وسامة.

ولم تلاحظ بيث إلا مؤخراً أن الصفة الملازمة لمارتين كانت صبي والدها المدلل!.

تتابعت زياراتها لوالدها في لندن خلال عطلات الأسبوع، وكانت دوماً تلتقي مارتين، ولهذا السبب أصبحت تتلهف لتلك الزيارات.

حاولت أمها أن تحذرها بلطف لكي تحترس من هذين الرجلين، ولكن الوقت كان قد فات، فقد أثر والدها عليها بالاهتمام الذي كان يخصها به، وباتت على وشك الوقوع في حب مارتين.

عندما أخذت زياراتها إلى لندن تتكرر بصورة متزايدة، بناءً على طلب والدها الّذي أرادها أن تكون مرافقته أو المضيفة في المناسبات، أخذ منها الزهو بحيث تجاهلت تحذيرات أمها، ولم تعد تهتم سوى بمقابلة مارتين.

وكانت تراه طيلة أيام العطل الأسبوعية لكونه مساعد والدها

المدلل. ولم تكتف بيث بذلك، بل كانت تروم أكثر من مجرد الصداقة.

كانت أمها في النتيجة، هي التي سهلت مسألة انتقالها للإقامة في لندن، رغم القلق الذي ساورها حيال ذلك.

كان محل بيع الألبسة الذي يملكانه في الجزيرة قد حقق أرباحاً وافرة، ما دفعهما إلى التوسع باتجاهات عدة. وكانت البداية افتتاح محل في نيويورك، ثم آخر في لندن. ذهبت كاترين بنفسها إلى نيويورك للاشراف على المحل هناك، وتركت لبيث أمر الاهتمام بالأعمال في الجزيرة. ولكن بعد افتتاح محل لندن بعدة شهور، أصبح من السهل على بيث أن تترك أمور العمل في الجزيرة لمساعدتها، والانتقال إلى لندن للإشراف على المحل الجديد.

كانت هذه هي الخطوة التي ينتظرها تشارلز ومارتين منها!

بدأ مارتين بالمرور على المحل بعد انتقالها إلى لندن بعدة أسابيع، متحججاً بأمر أو بآخر. وأحست بالزهو الشديد لاهتمامه بها وطارت من الفرح عندما دعاها أخيراً لتناول العشاء.

لا تزال بيث ترتعد كلما تذكرت خشيتها حينذاك من أن يعارض والدها هذه العلاقة!

تلت دعوته الأولى دعوات أخرى ووجدت نفسها في غضون أسابيع قليلة غارقة في حب مارتين من رأسها حتى أخمص قدميها. وعرف والدها بالأمر، فلم يبدِ أي اعتراض.

عندما حان وقت عودة والدة بيث من نيويورك، أقيم الاحتفال بخطوبة بيث على مارتين.

كانت بيث متحمسة جداً خلال الحفل الكبير الذي أقامه والدها لهذه المناسبة التي دعا إليها كل أصدقائه ومعارفه. لاحظت أمها هذا الحماس وبذلت قصارى جهدها لتبدو سعيدة أمام ابنتها، ولتظهر لكل

المدعوين الّذين كانوا يرمقونها بفضول أنها راضية بما يحصل. كان الجميع يعلم أن لدى تشارلز زوجة في مكان ما، ولكنها كانت المرة الأولى التي يرونها فيها بأم عيونهم.

قابلت كاترين مارتين للمرة الأولى في هذا الحفل، وشعرت بيث بتحفظات أمها عليه. ولكنها أبعدت هذا الشعور عنها لمعرفتها بأن أمها تتحفظ دائماً إلى أن تصبح على معرفة جيدة بالشخص. ولم تشك لحظة في أن أمها ستحب تشارلز حالما تعرفه جيداً.

أقيم حفل الزفاف بعد بضعة أسابيع، وكان حفلاً فخماً يليق بابنة تشارلز بالمر.

شعرت بيث بارتياح شديد لأن والدها وافق على الزواج. لكنه طالبهما بعدم التخلي عن اسم بالمر، وتسجيل زواجهما تحت هذا الاسم. بدا هذا الأمر لبيث خارجاً عن المألوف. في الواقع، كانت تتمرن لأسابيع على ترداد اسم بيث برادشو لاكتشاف وقعه على السمع بعد أن يتزوجا. ولكن مارتين استحسن فكرة اتخاذ اسم بالمر وبدا أنه لا يمانع في تغيير اسم عائلته إلى اسم عائلتها، ما جعل والدها يشعر بالرضى عن ارتباطها بمارتين. وكان آخر ما تسعى إليه هو إثارة غضب أبيها عليها، خاصة أنّه لم يتوثق ارتباطها به إلا مؤخراً.

بحثت أمها عنها بعد اتمام مراسيم الزواج، فيما كانت هي ومارتين يتأهبان للذهاب في رحلة شهر العسل إلى جزر الباهاماس.. وقالت لها والقلق يعتريها:

ـ جلّ ما أريده أن تكوني سعيدة يا حبيبتي!

لم يكن من شك حول علاقتهما المتقدة، لكن بيث لم تستمتع بالمشاعر التي كانت تتوقعها، رغم حبها الشديد لعريسها، والحب والاحترام الذي كان يظهرهما دائماً لها.

ولكنها عللت الأمر بأن هذه المسائل تأخذ بعض الوقت أحياناً،

ويجب التعامل معها بصبر وأناة.

استمرت أعمال أمها بالازدهار، وامتدت إلى هونغ كونغ وجزر الباهاماس وإيطاليا وحتى إلى باريس، مركز الأناقة العالمية. وفرحت بيث لنجاح أمها إذ هذا ما كانت تسعى إلى تحقيقه دوماً. ولكن أسفار أمها الطويلة وغيابها خلال الشهور الأولى من الزواج، حرمها الشخص الوحيد الذي تستطيع أن تبوح له بمكنونات صدرها. وبالكاد استطاعت أن تفضي لأمها خلال واحدة من زياراتها الخاطفة، بأنها وجدت الجانب الجسدي لزواجها مخيباً للظن!.

كما لاحظت أنها أصبحت ترى مارتن بعدما تزوجا أقل من قبل، وكان دائماً يتحجج بالانهماك في العمل. ربما ثمة مبالغة في كلمة «دائماً» ولكن الفراغ أخذ يثقل كاهلها. أصر مارتين على زوجته بالتوقف عن العمل والاكتفاء بكونها ربة منزل ومضيفة في الشقة التي يقيمان فيها.

ثم اكتشفت أنها حامل، وتغيّر كل شيء... سّر مارتين للنبأ وابتهج والدها، ووجدت فجأة أنها أصبحت موضع اهتمام ورعاية من كليهما، فكان ذلك بحد ذاته أمراً رائعاً.

كانت أمها مسرورة جداً بعدما تبين لها أن زواج ابنتها يسير على ما يرام، وأصبحت تنتظر بشوق ولهفة ولادة حفيدها الأول. وكانت بيث تدرك أن أمها تخشى على سعادتها. لذا سرّت جداً حينها، لأنه لم يعد هناك من شك حول قوة العلاقة بين بيث ومارتين.

ربما لو لم تسمع بيث الحديث بين مارتين وعشيقته، ولو لم يتسبب ذلك في إجهاضها ابنها، لاستمرت بالعيش سعيدة، غافلة عما يدور حولها لبقية حياتها.

كان من المفترض في ذلك اليوم، أن تمضي النهار مع والدتها في شراء حاجيات المولود الجديد، ولكنها شعرت بتوعك طوال فترة

الصباح. وعند حلول الظهيرة، لم تعد تستطيع التحمل، وارتأت العودة إلى البيت لكي تستلقي، وطمأنت أمها على أن كل شيء سيكون على ما يرام بعد أن تأخذ قسطاً من النوم كالعادة.

ولم يكن من المتوقع قطعاً أن تجد، لدى عودتها إلى المنزل، مارتين مع امرأة أخرى في غرفة نومهما.

لم يتسنَ لهما سماعها وهي تدخل الشقة، فقد كانا منهمكين ببعضها البعض، وصوت ضحكاتهما يملأ المكان.

شعرت بيث بقلبها يهبط، حين سمعت ضحكاتهما عند دخولها الشقة، ولكنها ظنت أن لدى مارتين ضيفاً في غرفة الاستقبال، وشعرت أن مزاجها لا يسمح لها بمقابلة أحد، خاصة إذا كان أحد زبائن مارتين.

إلاّ أنّها شعرت بالحيرة عندما وجدت غرفة الاستقبال خالية، وكذلك المطبخ. وتتبعت مصدر الضحكات إلى غرفتهما الزوجية، وهي تشعر بالدهشة، ولكن دون أن تساورها أي شكوك. كانت تعتقد أن مارتين يحبها، فلم يمضِ غير سنة ونصف على زواجهما، وهي حامل في الشهر الثالث، فما الذي يدعوها للاعتقاد بأن مارتين يطارح عشيقته الغرام على فراشهما؟.

رأتهما على السرير، عاريين تماماً. كان مارتين مستلقياً على ظهره، والمرأة مسترخية على صدره تقوم بمداعبة ذقنه، وكلاهما يضحك.

نظرة واحدة إلى وجه مارتين كانت كافية لتدرك أن ما يحدث بينهما الآن ليس سوى مداعبات الحب الختامية. وكانت بيث تعرف جيداً هذه النظرة الناعسة في عينيه وتعابير الارتياح البادية على وجهه. ولكنها لم تكن تعرف حتى تلك اللحظة، أن امرأة أخرى كانت تشاركها هذه المعرفة الحميمة، طوال الشهور الماضية.

همّت بالتكلم جهاراً والاعلان عن وجودها خلف الباب المفتوح جزئياً، ولكنهما أخذا يتبادلان الأحاديث، فتسمّرت مكانها.

قالت المرأة الجميلة الصهباء التي بدت في الثلاثين من العمر، بصوت خفيض يشبه خرخرة الهرة:

ـ ما العمل لو عادت زوجتك إلى البيت ووجدتنا معاً؟ قد يصبح الأمر محرجاً، إذا أمسكت بنا؟

رد مارتين بنبرة اشمئزاز:

ـ لو لم أكن أفكر باللحظات الحميمة التي قضيناها معاً على هذا الفراش، لما كان باستطاعتي مضاجعة هذه الحمقاء الصغيرة، التي تملك جسم وحس فتاة في المدرسة. اعتقدت أن جسمها امتلأ قليلاً في بعض الأماكن، نظراً لحملها، ولكن...

لمعت عينا المرأة السوداوان وأخذت تداعب صدر مارتين بأظافرها المطلية باللون القرمزي.

ـ إذن أصبحت تجد زوجتك الحامل مثيرة؟.

عبّر مارتين عن سروره لغيرتها بالقبض على يدها وتقبيل أطراف أصابعها:

ـ أنت تعرفين، يا هرتي الصغيرة، أنني لم أجد زوجتي مثيرة قط، ولن يغير الحمل في الأمر شيئاً. في الواقع، يوفر لي هذا الحمل العذر المناسب لكي أتجنب مطارحتها الغرام. إذاً... أنا الآن بحماية الجنين.

تقلص فم المرأة:

ـ لقد كلفنا هذا الجنين اللعين الكثير!.

داعب مارتين خدها الحريري الملمس واستطرد:

ـ ولكن حالما يولد حفيد تشارلز، سيتأمن مستقبلنا. فكما

تعرفين، لا شيء يهم تشارلز غير حفيده، وقد استغل بيث لهذا الغرض. وأنا متأكد من أنني، حالما يولد هذا الجنين، سوف أستطيع اقناعه بأن بيث لم تعد ضرورية لخططنا. وبعد مرور بعض الوقت، سيكون باستطاعتنا، أخيراً، أن نكون معاً.

لوت فمها وقالت:

ـ أرجو ألاّ تتوقّع مني رعاية هذا الأخرق الصغير.

فرّد مارتين ساخراً:

ـ طبعاً لا! سأحضر له في البداية مربية وعندما يكبر ويصبح في سن الدراسة، سأرسله إلى مدرسة داخلية.

تجهمت المرأة وهي تنظر إليه:

ـ هل أنت متأكد تماماً من أن الجنين ذكر؟

فأجابها مارتين باعتداد:

ـ قطعاً! لقد أجرت بيث فحص الصورة الصوتية لتحديد جنس المولود وحالته الصحية. وأخبروها أن الجنين صبي وفي صحة تامة. لقد أخبرتها أن في عائلتي أطفال ولدوا بعيوب خلقية في القلب، لكي أقنعها بإجراء هذا الفحص.

أجابته بسخرية: «وهي صدقتك؟!».

ضحك مارتين وقال:

ـ يا عزيزتي كلويه، بيث تصدق أي شيء أخبرها به!.

لم يعد باستطاعة بيث تحمل المزيد، فلقد سمعت ما فيه الكفاية وأصبحت على وشك السقوط. بعد أن شعرت بالوهن في ركبتيها، استدارت على عقبيها وهرعت خارج الشقة. ضغطت على زر المصعد، وحين تأخر في الوصول، نزلت الدرج عدواً، فسقطت وأخذت تتدحرج وتتدحرج.

وبالطبع أجهضت جنينها. ورافقت هذه الخسارة مضاعفات

خطيرة كادت أن تقضي على حياتها أيضاً. ولكنها حين عادت إلى وعيها واكتشفت أنها خسرت الجنين، وأنه لم يعد باستطاعتها أن تحمل مرة أخرى، تمنت لو أنها ماتت فعلاً.

لم يأتِ والدها حتى لزيارتها في المستشفى، وأدركت أن مارتين كان محقاً في ادعائه أن تشارلز كان يستغلها. ربما علم الآن أنه لم يعد باستطاعتها أن تنجب له حفيداً، لذا لم يعد يحتاج إليها.

ولم يأتِ مارتين أيضاً، وكان باستطاعتها تصوّر الغضب الذي اعتراه بسبب احباط خططه بهذه الطريقة.

ولكن بيث لم تأبه لعدم حضورهما، كما لم تعد تأبه لأي شيء آخر. لقد مات حبها لمارتين ولوالدها، كما مات الجنين الذي حملت به وأجهضته.

قامت أمها برعايتها، وأخذتها إلى بيتها عندما خرجت من المستشفى. ولم يبدُ على بيث أي دليل انفعال عندما سألتها أمها، إن كانت ترغب برؤية مارتين، لكنها لم تكن تريد أن تراه ثانية!

تعافت بسرعة. ورغم أنها كانت تتمنى الموت بشدة، كان جسدها يتعافى حقاً ولكن جراحها النفسية كانت بعيدة كل البعد عن الشفاء.

فقدت بيث صوابها واستشاط غضبها حين تسلمت أوراق الطلاق، واكتشفت أن مارتين يتهمها بالخيانة الزوجية، ومع رجل لا تعرفه. رجل كان صديقاً لمارتين.

قاومت هذا الادعاء وأنكرت خيانتها له، ولكن القانون وحالتها النفسية المتردية هزماها. وحكم لمارتين بالطلاق على أساس خيانتها له مع رجل لم تكن تعرفه.

فكرت بيث في أن كلويه فقدت صبرها من كثرة الانتظار، وإلاّ فما من سبب آخر يدفع مارتين إلى تلفيق هذه التهمة لها، للحصول

على الطلاق بسرعة.

وهكذا انتهى الأمر. ونالت الطلاق النهائي منذ بضعة أسابيع.

ولكن بيث لن تنسى أبداً ما حدث لها، وكيف استُغلت ثم رميت من دون رحمة، عندما تبين أنها لم تعد مفيدة لهذين الرجلين. لا ريب أنها لن تثق بأي رجل مرة ثانية.

وها هو الآن ماركوس غريفين يحاول أن يشق طريقه إلى حياتها، رجل بمثل صلابة والدها ومارتين وعنجهيتهما.

أجفلت عندما سمعت قرع الباب، وعبست وهي تتجه لفتحه. من المؤكد أن ماركوس ليس على هذه الدرجة من الوقاحة!.

وجدت النادل الذي خدمهما على العشاء، يقف عند الباب وبيده وردة حمراء ـ مشابهة تماماً للوردة التي زينت الطاولة التي تناولا العشاء عليها، لا بل هي بالذات!.

زاد عبوس بيث: «نعم؟».

قدم لها الوردة وهو يقول:

ـ إنها من السيد غريفين ليشكرك على السهرة الرائعة.

تكلم بحذر، وكان من الواضح أنه يريد أن ينقل ما قيل له تماماً.

أخذت بيث الوردة ببطء وحدقت إليها، فيما انصرف النادل بصمت.

الآن حقاً، دخل ماركوس غريفين حياتها. وليس لديها أدنى فكرة عمّا ستفعله!

* * *

٥ ـ عشرون سؤال ولا جواب!

ألقى ماركوس التحية على بيث عندما رآها تقترب منه في صباح اليوم التالي:

ـ يسرني أنك قررت الانضمام لي.

لم تكن عازمة على ذلك، فلقد تناولت طعام الفطور على شرفة غرفتها، وتلذذت بشرب القهوة ببطء. كما أملت أن تمر الساعة العاشرة لكي تريح عن ذهنها فكرة أن ماركوس غريفين يريد مقابلتها.

ولكنها تململت عندما قاربت الساعة العاشرة، وأخذت تتنقل بين الشرفة وأرجاء الغرفة. وأقرت لنفسها عندما حلّت الساعة العاشرة إلا دقيقتين، أنها ترغب بملاقاته. فالتقطت حقيبة يدها واندفعت خارج غرفتها مسرعة لتصل إلى بهو الفندق منقطعة الأنفاس.

بدت جميلة وشعرت أنها تندفع في مخاطرة للمرة الثانية. ولكنها تعرف هذه المرة على الأقل، أنها مخاطرة!!

قابلت تحديقه لها بنظرات ثابتة، وحاولت كبح نبضات قلبها التي قفزت لمرآه الوسيم في القميص الأزرق الفاتح والبنطال الرمادي.

ذكرته بما دعاها لأجله:

ـ لقد وعدت بأن تأخذني في جولة لمشاهدة البندقية!

أكد لها بحزم وهو يأخذ بذراعها ويقودها خارج الفندق.

ـ وهذا ما سأفعله!

بعد ليلة هانئة جددت خلالها نشاطها، بدت البندقية مختلفة لـ بيث هذا الصباح، وكذلك باعة الرصيف، الذين يعرضون بطاقات بريدية وتذكارات سياحية، والفنانون الغريبو الأطوار الذين يحاولون بالرسم محاكاة الجمال المحيط بهم.

عرض عليها ماركوس عندما رآها تتمهل أمام أحد المقاهي.

ـ هل ترغبين بتناول الطعام في أحد المطاعم؟

أومأت محذرة.

ـ لا أريد أن آكل غير السلطة، وأعني ذلك هذه المرة!

وأضافت بحسرة وهي تشعر بشدة الحرارة بعد تجوالها:

ـ وليكن المكان مبرّداً!

ابتسم ماركوس وقال:

ـ ثقي بي!

كيف لها أن تثق به، وهي تظن أنه من غير الحكمة لأي امرأة أن تفعل ذلك، مع أنه مجرد رفيق برهن أنه لبق ومثقف.

أسندت ظهرها إلى الكرسي وقد أتخمها الطعام:

ـ أسبوع آخر، وسيزيد وزني عدة كيلوغرامات.

تأمل ماركوس نحول جسمها بعبوس وقال:

ـ أعتقد أن ذلك سيكون أمراً جيداً.

رمقته بيث من خلال أهدابها المنسدلة وردت:

ـ أتظن أنني نحيلة؟

ما الّذي تفعله! باتت هي الآن من يتحرّش به ليجعله يتكلم...

غطت سحابة من الخجل وجهها، وحاولت صرف النظر عن الموضوع بحزم، رغم علمها أنها أصبحت نحيلة أكثر من عارضات

الأزياء بمراحل.

ـ أظن أن النحول بات رائجاً هذه الأيام!.

شرب ماركوس العصير الذي طلبه مع وجبة الطعام، ثم قال وهو يرمقها من فوق حافة الكوب:

ـ لم أفكر أنك من أولئك النساء اللواتي يواكبن الموضة الشائعة!

ما الذي يعرفه فعلاً عنها؟ وأقرّت بعد تفكير، أن كل ما في الأمر أنه يجدها جذابة بما يكفي ليلاحقها.

قالت بحدة: «أنت على حق، لست من هذا النوع!».

ولن تكون أبداً.

تجهّم وجه ماركوس وسألها:

ـ هل تلفظت بما أزعجك؟

ليس تماماً، مع أنها تكدّرت من إدراكها أنه يفكر بها بما يكفي، ليقرر أي نوع من النساء هي. أمّا هي، فتظن أنه من الرجال الذين يمضون ساعات من وقتهم مع امرأة، ثم ينصرف كل منهما في نهاية المطاف في سبيله.

أجابته بلطف:

ـ لا، إطلاقاً! أشكرك على مرافقتك لي اليوم، ولكن يجب أن أعود إلى الفندق الآن!

ـ لماذا؟

أجفلها رده، فأجابت بخفة:

ـ لماذا؟ حسناً... لأن الوقت حان لذلك.

ـ ما الذي ينتظرك هناك، في غرفتك؟.

غرفة خاوية تشبه تماماً غرف شقتها التي عادت إليها بعد أن أجهضت، رغم معارضة أمها.

وبما أن الشقة كانت هدية الزفاف من والدها، لم تجد صعوبة

في الاحتفاظ بها.

حاولت أن تخبر والدها بصورة موجزة، عن السبب الذي أدى إلى حادثة إجهاضها. ولكنه قال لها إنه ما كان يجب عليها أن تتصرف بحماقة، وأن لا أهمية للمرأة الأخرى لأن مارتين تزوجها هي وهي التي تحمل ولده.

ـ بيث؟

نظرت إلى ماركوس غريفين لبضع ثوان، ثم عاد إليها وعيها التام.

ـ لقد أريتني جزءاً من البندقية...

ـ ولكن ما زال أمامنا المتسع من الوقت...

ابتسمت ببرودة واضحة وهي تشير إلى النادل ليأتي بالحساب:

ـ لقد أخذت الكثير من وقتك اليوم، وأنا على يقين بأن لديك أقارب أو أصدقاء هنا تودّ زيارتهم.

فأجاب فوراً:

ـ أنت عائلتي في شمال إيطاليا، واعتقدت أننا أصبحنا أصدقاء.

ضحك بنعومة واستطرد بعدما لاحظ التشكك الذي بدا على وجهها:

ـ غالباً ما يتحول المعارف إلى أصدقاء، إنه التدرج الطبيعي في العلاقات البشرية.

شمخت رأسها إلى الوراء وضاقت عيناها:

ـ إلى أي مدى تتوقع من هذا «التدرج» أن يصل بالعلاقة؟

فردّ عليها باستخفاف: «لا أتوقع شيئاً غير الصداقة!».

علقت بيث بسخرية: «حقاً؟».

فكوّر شفتيه وقال: «هل طلبت منك أي شيء آخر؟».

كادت تقول له أنه ليس من نوع الرجال الذين يطلبون، ولكنها

عدلت عن ذلك، فربما كانت غير منصفة حياله. كان رفيقاً صالحاً اليوم. ولكنه وسيم جداً بحيث يصعب على أي امرأة حصر علاقتها به بمجرد الزمالة.

لم تختبر التهكم والاستخفاف من قبل. أما الآن فهي تنظر إلى كل شيء من هذه الزاوية، وتجد أن لكل شخص ما عدا أمها، دوافع خفية لمعظم تصرفاته. وهي لن تصدق أن ماركوس غريفين يضيّع وقته معها سدىً... لا شك أنه يتوقع شيئاً ما في المقابل.

أجابت على سؤاله: «لا، ليس بعد!».

كانت يدها ثابتة تماماً عندما رفعت كأسها إلى شفتيها، وأومأت بالشكر للنادل الذي جلب لها ورقة الحساب. ثم سحبت من حقيبتها بعض الأوراق المالية وقالت:

ـ سأدفع الحساب مقابل الوقت الذي قضيته معي!

فقال لها بنبرة جارحة:

ـ هل تردين عليّ الجميل بالإهانة؟.

ـ لم يكن في نيتي إهانتك!

عبس وهو غير مصدق كلامها: «حقاً؟».

تنهدت بيث. لقد استمتعت بصحبته هذا الصباح. ولو لم تبدأ بالتفكير في والدها ومارتين، لكانت شكرت هذا الرجل بكل تهذيب في نهاية اليوم، ولما جرى هذا الحديث بينهما.

قالت بصوت متهدج:

ـ نعم، أقدّر فعلاً الوقت الذي أمضيته معي هذا الصباح، ولكن لا بد أنك بحاجة للقيام بأمور أخرى.

فأجابها بنبرة جافة: «لا أظنّ أن لديّ ما أقوم به».

كانا يدوران في حلقة مفرغة بهذا الحديث، لا سيما أن كليهما بقي على مكابرته.

تنازلت إلى حل وسط:

ـ إذن لربما تودّ مرافقتي إلى الفندق. أظن أنه عليّ أن أعود إلى غرفتي لأخذ قسط من الراحة.

كانت تفضل في هذه الأيام أن تتعامل مع الواقع، مهما يكن مؤلماً.

إذن، لماذا تجنبت أن تخبر أمها عن هذا الرجل الليلة الماضية؟

شعرت عندما خرجا من المقهى، أن حرارة الطقس أصبحت أشد مما كانت عليه قبل أن يدخلاه. وبدت لها فكرة الاسترخاء في غرفتها المكيفة أكثر اغراء، بينما كانا يتمشيان عائدين إلى الفندق.

أبدت له ملاحظة بصورة عرضية:

ـ هل مجيئك إلى البندقية أيضاً هو فعلاً محض صدفة؟

فأجابها: «هل تظنين ذلك؟».

مسحت حاجبيها بيدها وقالت: «ألم يكن صدفة؟».

رد عليها باستهزاء: «كلا!».

عرفت أنه من المفترض أن يحرجها هذا الإقرار، ولكن صراحته أثرت فيها. سألته:

ـ كيف عرفت أنني قادمة إلى هنا؟

فأجابها باستخفاف:

ـ لقد اتصلت بالفندق الذي كنت تنزلين فيه وسألتهم.

اتسعت عيناها من الدهشة وقالت:

ـ وأخبروك عن برنامج رحلتي، هكذا بكل بساطة؟

قهقه من السخط الذي أبدته:

ـ تقريباً. وبصراحة، أخبرتهم أنني شقيقك وأريد التأكد من أن حجوزاتك على ما يرام، وسرّهم اهتمامي بك!

كانت بيث متأكدة من أن هالة السلطة التي تحيط بهذا الرجل

تفتح له الكثير من الأبواب.

لم تشك للحظة واحدة في أن يكون لوالدها علاقة بهذه اللقاءات. فقد أوضح لها تماماً خلال السنة الأخيرة، أنها لم تعد موجودة بالنسبة إليه.

سألت ماركوس: «هل تقيم في لندن؟».

ـ كلا!

يا لهذا الجواب المفيد!

لقد بات الآن يتعمد أن يحجب عنها هذه الأمور. ولكنها لا تستطيع أن تلومه تماماً، فهو يسقيها من الكأس نفسه الذي سقته منه في لقائهما الأول، ولا يفصح اطلاقاً عن أي شيء.

حاولت مرة ثانية: «هل أنت هنا في رحلة عمل؟».

فأجابها وهو يهز رأسه: «هنا، في البندقية؟ لا!».

أدركت الآن مدى الإحباط الذي لا بد أنه شعر به خلال الأيام الثلاثة الماضية. إنه أمر مزعج جداً، هذا أقل ما يمكن قوله!

تابعت تسأله: «هل لديك أعمال في انكلترا؟».

فرد عليها مؤنباً، وقد بدت القسوة في عينيه:

ـ هل هذه لعبة الأسئلة العشرين؟ إذا كان الأمر كذلك، فربما لا تمانعين أن تخبريني بعض الأمور عنك؟

ـ إنني أسأل على سبيل التحادث فقط!

صرفت النظر عن الموضوع، وهي تشعر بالانزعاج من الغموض الذي كان يلفّ ذاك الرجل. بدا من الواضح أنه لا ينوي اخبارها بأي شيء عنه، قبل أن تخبره هي عن نفسها!

هز كتفيه وقال باستخفاف: «الصمت وتبادل الحديث سيان عندي الآن!».

وهي كذلك في العادة، ولكنه أثار فضولها فجأة... من أين

يحصل على المال؟ هل ورثه عن جدته الإيطالية أم عمل وكسبه بجهده وعرق جبينه؟

والآن تملكها الفضول لمعرفة كل شيء عنه.

عرفت بيث، عندما أخبرها عامل الاستقبال عن تلقيها مخابرة هاتفية أخرى، أن المخابرة من أمها.

لن تعتاد كاترين سريعاً على فكرة أن يترك تشارلز ماله إلى الآخرين. وإلى أن يحصل ذلك، ستصب جام غضبها وتثير مشاكل تربك الجميع، فسرت بيث لتواجدها بعيداً عن لندن.

حثها ماركوس: «ألن تقرأي ما جاء في الرسالة الهاتفية؟».

نسيت بيث للحظة وجوده معها، فرفعت نظرها إليه جافلة، ثم أدركت أنه يشير إلى الورقة التي تحمل رسالة أمها.

حثّها مرة أخرى: «قد يكون الأمر هاماً!».

ربما، ولكنها تشك بذلك. وعلى الأرجح أن أمها اتصلت بها لتنفث عن غضبها ثانية.

فتحت الورقة، وشعرت أن ساقيها لم تعودا قادرتين على حملها بعدما قرأت الرسالة.

فقال ماركوس وقد بدا عليه القلق عندما رآها تترنح أمامه:

ـ بيث؟ تعالي معي واجلسي.

قادها من ذراعها بعيداً عن مكتب الاستقبال وأجلسها على أحد مقاعد البهو.

سقطت الورقة من يدها بينما كانت تجلس، وتطوحت قليلاً قبل أن تستقر على السجادة. وحدقت بيث إليها من دون أن تعي ماذا يحدث.

التقطها ماركوس وألقى نظرة على ما جاء فيها ثم دسها في جيبه وجلس قبالة بيث. أخذ يديها الباردتين بين يديه وفركهما برقة لإعادة

الحرارة إليهما، وقال مستفهماً:

ـ بيث؟

ومع أنه أبعد الورقة عن ناظريها، إلاّ أن كلماتها انطبعت في ذاكرتها: «أعلن م. خطوبته على بريندا كارليسلي».

كان حرف «م» يرمز إلى مارتين. أما بريندا فهي ابنة شريك والد بيث التي تبلغ الثامنة عشرة من عمرها... شابة يافعة وجميلة، ولا شك أنها تتعرض الآن للاستغلال في خدعة أخرى يقدم عليها مارتين ووالدها.

من المؤكد أن مارتين سيصبح وريث والدها في وقت قصير، وبزواجه من بريندا ستؤول إليه كامل هذه الامبراطورية الصناعية في يوم من الأيام.

مع ذلك كانت بيث متأكدة من أن علاقة مارتين وكلويه لا تزال مستمرة. ومن كل النساء اللواتي يستطيع مارتين أن يختار من بينهن زوجة، لم يكن من باب الصدفة اختياره بريندا كارليسلي، الوريثة الوحيدة لأعمال والدها وأمواله.

كانت بيث معجبة حقاً ببريندا، ووجدت صحبتها ممتعة في المناسبات القليلة التي التقت بها، رغم أنها كانت حينها فتاة صغيرة، لا تصلح كصديقة دائمة لبيث. ولكن لا يمكنها التصديق أنه سيكون باستطاعة بريندا الوقوف في وجه كلويه المحنكة!

هل هي متألمة لخطوبة مارتين؟ لم تكن متأكدة من مشاعرها. لقد أحبت مارتين ذات يوم، ولكن قسوته ووحشيته أثناء فقدانها لجنينها لم تترك شكاً حول شعوره نحوها. فما كان منه إلاّ أن قتل كل مشاعر الحب التي كنّتها له يوماً.

طلب منها ماركوس أن تشرب فنجان قهوة، وذهب بحثاً عن النادل.

أغمضت بيث عينيها، بعد أن شعرت بأن كل ما حولها يدور. لا عجب أن تكون أمها قد اتصلت بها على وجه السرعة، فمن الواضح أنها عرفت أيضاً ما معنى ذلك: شابة ساذجة أخرى يستغلها مارتن في سبيل الحصول على امبراطورية بالمر.

يجب أن تعود إلى لندن في أسرع وقت ممكن، فهي لا تستطيع أن تدع بريندا تتزوج مارتين من دون أن تحذرها على الأقل، وتخبرها أي نوع من الرجال هو. ولكن لا شك في أن هذه الشابة واقعة في حبه إلى درجة أنه سيصعب على بيث اقناعها.

كان ماركوس قد عاد في هذا الوقت وقطب جبينه حين رأى أنها تحاول النهوض.

ـ لن تذهبي إلى أي مكان قبل أن تشربي بعض القهوة وترتاحي.

رفعت يدها إلى خديها، وتصوّرت شحوب وجهها، فقد تلقت صدمة كبيرة جداً. لم يخطر لها قط أن يحدث أمر كهذا، فبريندا يافعة جداً، وتصغر مارتين باثنتي عشر سنة.

أومأ ماركوس رأسه شاكراً النادل الذي جلب فنجان القهوة، متجاهلاً احتجاجات بيث عند وضعه السكر في الفنجان. وقال لها وهو يقف ليراقبها وهي تحتسي القهوة ـ المحلاة جداً ـ.

ـ أنت تحتاجين إلى شرب هذا!

هل كان ظاهراً عليها أنها تلقت صدمة كبرى؟ طبعاً، لقد مضت سنة على فقدانها الجنين وعلى تحطم زواجها، ومع ذلك ما زال الألم على حاله. هل سيتوقف أبداً؟ واغرورقت عيناها بالدموع.

حثها ماركوس بشدة: «اشربي!».

أطاعته واحتست الشراب الساخن، ووجهها ينقبض مع كل جرعة. ثم وضعت الفنجان الفارغ على الصينية بيد مرتجفة، وقالت:

ـ يجب أن أصعد إلى غرفتي لإجراء مخابرة هاتفية.

وضع ماركوس يده تحت إبطها، وقال: «سأرافقك».

فردت عليه:

ـ لا، أنا... أشكرك للوقت الممتع الذي وفرته لي اليوم يا ماركوس! لن أنسى أبداً أنك عرّفتني على البندقية.

قطب جبينه وقال: «يبدو من ذلك أنه وداع نهائي».

أشاحت بوجهها عن عينيه: «أنا حقاً مضطرة للصعود إلى غرفتي».

أمسك بها بشدة وقال: «سوف أصطحبك إليها!».

لم يكن من جدوى في المجادلة مع هذا الرجل وهي على هذه الحالة من الضعف. سيفعل ماركوس في نهاية الأمر ما يريد أن يفعله، وهي ليست في حالة تسمح لها بمعارضته.

وفي الحقيقة لأنها كانت لا تزال تترنح.

لم يضع مارتين وقتاً لتأمين مستقبله مرة أخرى. وهذه المرة أمنه بصورة مضاعفة... فهو لن ينال الآن نصف الامبراطورية وحسب، بل سيحصل عليها كاملة بزواجه من بريندا. ولم تعرف أين سيكون موقع كلويه في حياته بعد ذلك. ولكن تلك مشكلة كلويه!

أما ما يقع على عاتق بيث فهو المسؤولية تجاه بريندا!

توقفت أمام غرفتها واستدارت نحو ماركوس وقالت وهي عاجزة عن النظر إليه:

ـ أنا ممتنة لك لأجل... لأجل الوقت الذي أمضيته في صحبتي... ولمساعدتي. أعتذر عن تصرفاتي الحمقاء، ولكنني... تلقيت أخباراً صاعقة.

إنها تدين له، على الأقل، بمثل هذا التوضيح، رغم عدم تأكدها من أنه لم يستخلص ذلك بنفسه.

نظر إليها بامعان:

ـ هل أستطيع مساعدتك في أي شيء؟

فردّت بصوت أبحّ وهي تهز رأسها بالنفي: «لا!».

لم يعد هنالك ما يمكن لأي أحد أن يفعله لتخفيف الآلام النفسية التي تمزقها، مرة تلو المرة. فقد ظنت أنه لم يعد بمستطاع تشارلز ومارتين أن يقدما على أي عمل لإيذائها.

بقي ماركوس ينظر إليها عابساً: «هل هي أخبار سيئة؟».

ابتلعت ريقها بصعوبة وأجابت: «سيئة للغاية!».

ـ هل أصاب المرض أحد أفراد عائلتك؟ هل عندك..؟

ردّت عليه متوسلة:

ـ أرجوك، لست في مزاج لألعب لعبة الأسئلة العشرين.

ـ هل ستخلدين إلى النوم؟

ستفعل ذلك في نهاية المطاف، ولكن ليس قبل أن تجري مخابرتين. ولكنها حتماً ستأوي إلى الفراش حالما تنهي ذلك.

أجابته بصدق: «نعم، سوف آوي إلى الفراش».

بدا عليه القلق وهو يرد:

ـ لا أحب أن أراك على هذه الحال. لا بد أن يكون هناك ما أستطيع القيام به!

بعد أن رأت بيث القلق يعلو وجه ماركوس، أيقنت أن الحزن بادٍ في عينيها الخضراوين، وعلى وجهها الشاحب، وشفتيها الباهتتي اللون.

رفعت يدها ولمست خده برقة ثم طمأنته: «لا شيء، ولكني أقدر اهتمامك بي!».

زفر وقال بصوت أجش: «اللعنة يا بيث! أنا لا أريد...».

ثم أخذها بين ذراعيه، وضمّها بقوة إليه.

كانت من الحزن بحيث لم تستطع التزام جانب الحيطة والحذر.

فتجاوبت معه، وهي تتمنى لو لم تمر الثلاث سنوات الأخيرة في حياتها، ولا ذهبت لزيارة أبيها، ولا قابلت مارتين قط، ولا عرفت متعة الحمل ثم الإحباط البالغ لفقدانها الجنين. داعب ماركوس وجنتيها، وعيناه الداكنتان يغشاهما القلق:

ـ بيث، أخبريني عما يجري لك. دعيني أساعدك!.

هزت رأسها بالنفي وهي تحاول جاهدة أن تكبح دموعها:

ـ لا شيء مهم! أرجوك... يجب أن أدخل إلى غرفتي! أنا آسفة إذا كنت... تصرفت بشكل فظ.

دخلت بسرعة إلى غرفتها، وأسندت ظهرها إلى الباب وهي تشعر بالوهن.

يجب أن تعود إلى بلدها الآن وبأسرع ما يمكن، رغم أنها على يقين من أن هذا ما ترمي إليه أمها.

وجدت بعض المشاكل في حجز مقعد لها على أسرع طائرة، ولكنها استطاعت أن تؤمن واحداً على الرحلة التي تقلع في الغد.

خابرت أمها بعد ذلك مباشرة، غير أن السكرتيرة أخبرتها أن أمها في رحلة عمل، ولن تعود قبل مساء الغد. وأدركت بيث أن هذا هو السبب الذي دعا أمها لترك رسالة لها بدلاً من محاولة التكلم معها شخصياً. فترك رسالة مكتوبة ليس من عادات أمها فهي متكتمة حول خصوصياتها، فرمزت لمارتين بحرف م، مع أنها وضعت اسم بريندا بالكامل، لأنه لم يكن لدى بيث أي وسيلة استدلال، تمكنها من معرفة من هي الشابة التي يعتزم مارتين أن يتزوجها.

الرسالة... أدركت فجأة، وتذكرت في تلك اللحظة بأن ماركوس وضع الورقة في جيبه....

* * *

٦ ـ أينما ذهبتِ

ـ هل ربطت حزام الأمان؟ نحن على وشك الهبوط!

فتحت بيث عينيها لتنظر إلى الرجل الجالس إلى جانبها. لم تندهش عندما رأته يركب الطائرة معها اليوم، كما لم تظهر أي انفعال عندما تبين لها أن مقعديهما متجاورين فعلاً.

كان بإمكانها التكهن بذلك، حالما تذكرت أن الرسالة مدسوسة في جيب بنطاله. كان ماركوس من الذكاء بحيث أنه لاحظ مدى التأثر العميق الذي اعتراها عندما قرأت الرسالة، وتكهّن أن فيها ما يكفي ليستدعي عودتها إلى انكلترا، نظراً إلى ردة فعلها. مكالمة هاتفية، مثل التي أجراها في فيرونا، هي كل ما يحتاجه ليستطلع بشأن مغادرتها المتوقعة في اليوم التالي.

وطبعاً، كان لديه من العنجيهة ما يكفي لإجراء هذه المكالمة بالفعل!.

لقد أمضت طوال الليل تقريباً، وهي تحزم حقائبها. عندما أوت إلى الفراش، تقلبت كثيراً وهي تحاول الهروب من وطأة المشاعر التي اعترتها. تذكرت كل المآسي التي عصفت بها من تحطم زواجها إلى خسارة جنينها. واعترتها الرعشة وهي تفكر أن شابة أخرى على وشك الوقوع ضحية لأمر مشابه.

كانت مرهقة جداً بحيث غرقت في النوم حالما أقلعت الطائرة.

انتصبت فجأة على مقعدها، وانحنت بحثاً عن حقيبة يدها الموضوعة بين قدميها. ثم بدأت بفك حزام الأمان وهي تقول:

ـ لم أحل الحزام طوال الرحلة. من الأفضل أن أذهب إلى الحمام الآن.

لكن ماركوس منعها وهو يومىء برأسه إلى الإشارة المضاءة لوضع حزام الأمان فوق رأسيهما:

ـ لقد قلت لك إننا على وشك الهبوط.

أدركت باستياء أنه يعني ذلك حرفياً.

لم يحتج شعرها المالس غير تسريحة سريعة، واكتفت بوضع طبقة جديدة من أحمر الشفاه.

رفع ماركوس حاجبيه وعلّق هازئاً:

ـ هل هذا كل شيء؟ تمضي معظم النساء اللواتي أعرفهن ساعات في التبرّج!

ثم أردف قائلاً:

ـ هل ينتظرك أحد في المطار؟

ألقى سؤاله بصورة عرضية. مع ذلك شعرت بيث أنه مهتم جداً بالحصول على جوابها، وأدركت أنهما لم يتحادثا قط، فيما إذا كان أي منهما مرتبطاً حالياً.

أجابت بخفة: «لا أعتقد ذلك!».

ثم التفتت لتنظر عبر النافذة، بينما أخذت الطائرة تهبط بسرعة.

كانت سعيدة فعلاً بالعودة إلى انكلترا، وقد خدمت العطلة أهدافها. فهي تشعر أن معنوياتها أصبحت أقوى إلى حد ما. وربما عندما تقوم بواجبها نحو بريندا، ستتمكن من استعادة وتيرة حياتها

الطبيعية. وتذكرت أنه مضى عليها وقت طويل جداً لم تشعر خلاله بمثل هذا التطلع للمستقبل.

يا إلهي، ليس لهذا الشعور أي علاقة بالرجل الجالس إلى جانبها، أم أنه كذلك؟

رمقته بنظرة وهي مقتنعة أنّه لا يصلح لاستحواذ اهتمامها. ومع ذلك، أعاد لها، بطريقة ما، ولمجرد جلوسه إلى جانبها، ثقتها بنفسها. والشعور بأنها تستطيع التعامل مع أي أمر يواجهها.

هل باتت تهتم لأمر ماركوس، أيعقل ذلك؟ وإلاّ، لِمَ ارتاحت لوجوده قربها اليوم؟

حمدت الله على رجوعهما إلى لندن، حيث أصبح باستطاعتها أن تسترجع حس الاحتراس الذي سلبه منها سحر البندقية. ولن يصلح أبداً أن تتورط عاطفياً مع ماركوس غريفين.

ولأنها أدركت فجأة مشاعرها نحوه، تكلفت أكثر في تصرفاتها بينما كانا ينزلان من الطائرة، واحتجت بشدة عندما حمل حقائبها ووضعها على العربة مع حقائبه.

ولكنه بت الأمر بصورة منطقية:

ـ يجدر بنا أن نستقل سيارة أجرة واحدة إلى المدينة.

تجهمت وهي تكاد تركض لتلحق به، بينما كان يسير بخطوات عريضة.

توقفت أمامها سيارة أجرة، وعندما سألهما السائق عن وجهتهما داخل لندن، أعطت بيث عنوانها للسائق بانزعاج، قبل أن تستقر على مقعد السيارة الخلفي، وماركوس إلى جانبها.

قال لها: «شقتي لا تبعد كثيراً عن شقتك».

إن كان ذلك صحيحاً، لِمَ لم يتقابلا في مناسبة اجتماعية قبل الآن؟

سألته بأسلوب عفوي:

ـ هل تقيم في لندن منذ فترة طويلة؟

فرد عليها متلعثماً:

ـ أنا لا أقيم في لندن. لدي شقة هنا. كما أملك أيضاً شقة في هونغ كونغ، وأخرى في نيويورك. في الواقع، أنا أقيم في نيويورك منذ حوالى سنتين.

راحت تفكر في أنه لا بد أن يكون ماركوس على معرفة قريبة أو بعيدة بوالدها.

حاولت أن تسأله دون أن توحي له بالاهتمام الزائد لجوابه:

ـ ما نوع الأعمال التي تقوم بها؟

فأجابها باختصار وقد ضاقت عيناه:

ـ أنا أعمل بصورة رئيسية في العقارات. وأنت، هل تعملين؟

لماذا ساورها الآن، الشعور بأنه طرح هذا السؤال بازدراء؟ هل يبدو من مظهرها أنها من الأشخاص الذين لم يعملوا قط في حياتهم؟ إن كان الأمر كذلك، فهذا انطباع خاطىء تماماً! ولكن ماركوس لا يعرف إلا القدر القليل عنها، كما أنها لا تعرف عنه شيئاً.

أجابت بنبرة متصلبة:

ـ نعم، أنا أعمل، أدير محلاً لبيع الملابس.

رفع حاجبيه الداكنين قليلاً، ولكنه لم يضف شيئاً على الموضوع.

شعرت بيث بالارتياح عندما وصلا إلى لندن. لم يستغرق وصول سيارة الأجرة إلى شقتها إلاّ دقائق قليلة. كانت تريد فقط أن تستقر في بيتها، وتتدبر وسيلة للتكلم مع بريندا، ومن ثم متابعة حياتها. لم تكن تعرف إن كان ذلك يتضمن ملاقاة ماركوس مرة أخرى أم لا.

خرج من سيارة الأجرة ولحق بها بعدما توقفت أمام المبنى الذي

تقيم فيه. وأمسك بالحقائب وهو يقول:

ـ سأساعدك في حمل هذه!

ـ أنا...

أرادت أن تعترض، ولكنها أدركت أنها لن تستطيع حملها بمفردها، فقبلت مساعدته وهي تشعر بالاحراج.

ـ شكراً لك!

وضع ماركوس الحقائب وقد لوى فمه امتعاضاً، وقال:

ـ لن أضايقك إذا دعوتني إلى الداخل.

شعرت بالحرارة تدّب في وجنتيها، ولكنها بقيت دون انفعال.

ـ أشكرك على كل المساعدة التي قدمتها لي، اليوم.

فأجابها هازئاً:

ـ لم تكن نيتي أن أساعدك، فأنا عرفت الآن مكان إقامتك. وهكذا أصبح بامكاني زيارتك مرة أخرى، في أقرب وقت.

ـ ولكن...

همس برقة وهو يحني رأسه ويحيط جسدها بذراعيه: «بيث!».

سرى الدفء في جسمها كلّها، ولفّت ذراعيها حول عنقه لا إرادياً، وأصبح عناقهما أكثر حرارة.

لمس ماركوس وجنتيها المتقدتين بأنامله، وقال لها بصوت أجش قبل أن يغادرها:

ـ نلتقي قريباً!

بقيت بيث مكانها لبضع ثوان، وهي عاجزة عن الحراك. قالت: «قريباً». قد يعني أي وقت في المستقبل، أما الآن فلديها أمور ملحة أكثر، عليها أن تعالجها.

لم تكن مهيأة نفسياً عندما وجدت أمها بانتظارها في شقتها!.

نهضت برشاقة عن الكرسي الذي كانت تجلس عليه في الصالون

حالما دخلت بيث الردهة، ووضعت المجلة التي كانت تتصفحها لترحب بابنتها:

ـ حبيبتي! لقد عدت مساء البارحة في ساعة متأخرة، وأخبرتني كاي عندما اتصلت بالمكتب هذا الصباح عن عودتك اليوم. ولكنني لم أعرف في أي ساعة ستعودين بالضبط...

ـ ما كان عليك أن تضيعي اليوم سدى بانتظاري!

وأدركت بيث كم أنها محظوظة، فلو قابلت أمها ماركوس، لما كفّت عن الحديث عنه!

وبّختها أمها بلطف:

ـ لم يضع وقتي سدى، بيد أنني متضايقة لأنك عدت. لم يكن من داعٍ لتقطعي عطلتك هكذا، خاصة أنه بدا لي أنك تستمتعين بوقتك.

فذكّرتها بنبرة جارحة: «لقد عقد مارتين خطوبته على بريندا».

زاد عبوس أمها، وسألتها غير مصدقة: «هل ما زلت متعلقة به؟».

فردت بصوت عالٍ، وهي تضع حقائب سفرها في غرفة النوم:

ـ طبعاً لا، ولكن يجب التفكير ببريندا!

رددت أمها الاسم مستفهمة: «بريندا؟».

فأومأت بيث رأسها: «ألم تذكري في رسالتك الهاتفية أنها ومارتين سيتزوجان؟».

ـ وإن يكن..؟

تنهدت بيث قالت: «إنها صغيرة السن يا أمي، ومن غير المحتمل أن تدرك ما هي مقبلة عليه!».

ردت أمها: «ستدرك ذلك قريباً!».

فعنّفت أمها قائلة: «مثلما فعلت أنا؟».

عندها ذكرتها أمها: «لقد حاولت أن أحذرك يا بيث، وأنت لم تشكريني حتى على ذلك!».

وقوعها في حب مارتين حجب عنها سماع الحقيقة. ولعل هذه هي حال بريندا الآن، فهي تعرف أكثر من أي شخص آخر السحر الذي باستطاعة مارتين أن يمارسه على أي امرأة.

أجابت وهي تتنهد: «يجب أن أحاول على الأقل يا أمي!».

تجهّم وجه كاترين وهي تؤنب ابنتها:

ـ أتعرفين أن ذلك سيجعلك غير محبوبة، على الرغم من كل ما ستفعلينه!. لن يعجب ذلك مارتين، كما أنّه لن يعجب والدك. وبالنسبة إلى هذا الموضوع، أنا متأكدة من أنه يشعر بأنه قام بأفضل صفقة أعمال في حياته المهنية كلّها. لقد حاول شراء حصة شين في الشركة طوال سنوات، وبهذا لن يحتاج إلى ذلك.

كانت على معرفة تامة بالفوائد التي سيجنيها والدها، ما زاد من قلقها إزاء هذه اللعبة.

ردت بيث بتجهم:

ـ وهذا تماماً ما يدفعني على الأقل، للتكلم مع بريندا!!

ـ لا أظنها ستشكرك على هذه المحاولة. فكما تعلمين، الشابات الصغيرات اللّواتي يقعن في الحب، قلّما يعرن اهتماماً لهذه الأحاديث!

انقبضت أسارير بيث: «على الأقل، سأريح ضميري!».

ردت أمها بحدة: «ليس عند والدك وعند مارتين ضمير!!».

فقالت بيث بفظاظة: «لا تخبريني بما أعرف!».

شدت أمها على يدها، متفهمة لمشاعر ابنتها:

ـ لا، طبعاً! على أي حال، لقد تكلمنا في الموضوع بما يكفي. حان الوقت لتخبريني عن عطلتك.

كل الأشياء والأماكن الرائعة والجميلة التي شاهدتها... ومع ذلك أدركت أن أكثر ما ستتذكره عن هذه الرحلة، هو لقاؤها بماركوس غريفين.

كانت أمها تمعن النظر فيها حتى سألتها:

ـ ماذا حدث للرجل الذي التقيت به في فيرونا؟

اصطبغت وجنتا بيث باللون الأحمر وحاولت أن تتجنب نظرات أمها، رغم معرفتها أن ذلك سيفضح الأمور، ولكن لم يكن بيدها حيلة!

أجابت مواربة:

ـ أعتقد أنه عاد إلى بلاده.

ـ وماذا أيضاً؟

عبست في وجه أمها ونفضت عنها الحيرة من هذا السؤال:

ـ أثرت به عروض الأوبرا كثيراً، مثلما أثرت بي.

لو علمت أمها أنه لحق بها إلى البندقية ثم رافقها في طريق العودة إلى انكلترا، لكانت الآن تسأله عن نواياه تجاه بيث لو سمحت له بالدخول إلى الشقة معها...!

بدت على أمها الخيبة وهي تقول:

ـ أهذا كل ما أثر به؟ هل رأيته مرة أخرى بعد ذلك؟.

لم تستطع المواربة فقالت: «نعم... لقد قابلته! ولكن صداقات العطلات لا تؤدي إلى أي مكان، أليس كذلك؟».

استقرت أمها على مقعد باسترخاء:

ـ هم هم.. أتقولين «صداقة»؟ أي نوع من الصداقة كانت تلك؟.

حاولت أن تغض الطرف عن العناقات العنيفة التي تبادلاها،

وبعضاً منها كان قبل دقائق قليلة، وقالت:

ـ اطمأني يا أمي، كانت صداقة بريئة جداً.

بدت الخيبة على وجه كاترين مرة أخرى: «إذن لن تقابليه مرة أخرى؟».

تملصت بيث من الإجابة لتقول بصدق: «أنا لا أعرف حتى مكان إقامته!».

ردت أمها مظهرة عدم الرضى: «يا لسوء الحظ! ألم تقولي إنه... جدير بالاهتمام ورفقته ممتعة؟».

ـ بلى، ولكن هذا لم يعد مهماً الآن... وكما قلت، أشك في أن أراه مرة ثانية. جلّ ما يهمني الآن هو الذهاب لمقابلة بريندا في أسرع وقتٍ ممكن.

حذرتها أمها:

ـ يا حبيبتي، لا يمكنك أن تتكلمي مع الفتاة دون مقدمات لتخبريها بأنها ستتزوج رجلاً لا يصلح لها!

ـ هذا ما أشعر برغبة للقيام به.

هزت أمها رأسها وقالت: «ستبدين وكأنك تشعرين بالغيرة والمرارة».

فردت بيث بغيظ: «إذاً، مبروك عليها مارتين!».

قالت أمها وهي منقبضة الأسارير:

ـ تبدين من نبرة صوتك هذه، كامرأة منبوذة.

وتابعت تقول:

ـ من المحتم أن تنظر إلى دوافعك بارتياب، كونك طليقته. وستفترض بريندا أنك ما زلت تحبين مارتين، وتشعرين بالغيرة لأنه سيتزوجها.

اندفعت تقول بشراسة:

ـ لا يهمني ما تظن بي، إذا لم أستطع أن أعيدها إلى صوابها، فسوف أتكلم مع شين. قد يكون رجل أعمال مثل تشارلز، ولكن ذلك هو التشابه الوحيد بينهما. لقد كان لطيفاً جداً معي عندما التقينا.

أوضحت لها أمها بلطف:

ـ كان بوسعه أن يفعل ذلك حينها، لأنك لم تكوني في وضع يهدد سعادة ابنته.

أدركت بيث أن الأمر أكثر تعقيداً مما تصورت ولكنها لن تتخلى عن عزمها ببساطة.

* * *

أخبرتها أمها بسرور في وقت لاحق:

ـ تقيم عائلة ترنيت حفلة ليلة السبت، ولقد تحققت أن مارتين وبريندا سيحضرانها. فاستطعت أن أدبر دعوة لكلينا.

ـ ليلة السبت؟

شعرت فوراً بالتشنج من فكرة الالتقاء بمارتين ثانية، الأمر الذي تعمدت تفاديه. ولكن كان أمامها يوم آخر لتحضر نفسها لهذا اللقاء. وحاولت أن تطمئن أمها:

ـ لست مضطرة إلى الذهاب إن كنت لا ترغبين بذلك، فأنا لن أمكث طويلاً.

ردت عليها بلهجة جافة:

ـ هذه المرة لن أدعك تدخلين عرين الأسد لوحدك. لقد تركتك تفعلين ذلك مرة من قبل و...

أكملت بيث الجملة عن أمها:

ـ ... وكلانا يعرف ما أسفر عنه ذلك. ولكن أشك في أن يتجرأ مارتين على افتعال مشكل في منزل بربارا وآلك!

ردت أمها بامتعاض:

ـ لا أستبعد أي شيء قد يقدم عليه ذلك الرجل. سأمر عليك عند الساعة التاسعة مساء السبت لآخذك إلى الحفلة.

كان من الأسهل أن تكتفي بالإذعان، حين يتملك العناد أمها.

قالت أمها تمازحها:

ـ إلا إذا كان هنالك شخص آخر تفضلين الذهاب معه؟

ماركوس... إنها تلمح إلى ماركوس. فهو الرجل الوحيد الذي أتت على ذكره طوال السنة الماضية.

ولكنه لم يتصل بها بعد، ولم يمضِ غير يوم واحد على عودتهما من البندقية، وهو آخر شخص توده أن يقابل مارتين!

ردّت عليها على مضض:

ـ لا، سأكون بانتظارك عند الساعة التاسعة من مساء السبت!

ـ بيث!...

ـ ماما، لقد دخلت البيت لتوي، وقدماي تؤلماني، وأنا جائعة، و...

أكملت كاترين الجملة عنها:

ـ وأنت لا ترغبين بمواصلة التحدث معي لفترة أطول من ذلك!

خاصة إذا كانت الحديث سيتناول موضوع ماركوس غريفين. وهي التي كانت تحاول عدم التفكير به، الأمر الذي ظهر أنه أكثر صعوبة مما تخيلت.

ـ يوم السبت، إذن!

أقفلت الخط بسرعة، قبل أن يتسنّى لأمها أن تطرح المزيد من الأسئلة.

كادت أن تقع عن الكرسي الّذي جلست عليه، عندما بدأ الهاتف يرن ثانية، فاختطفت السماعة وصرخت باستياء: «نعم؟».

ـ بيث؟

هجرها كل أمل في الاسترخاء هذا المساء، عندما سمعت صوت ماركوس. كيف حصل على رقم هاتفها؟ وما الذي يريده في هذا الوقت؟

رددت مرة أخرى، ولكن بنبرة تنم عن الدهشة: «نعم؟».

بدت نبرة صوته منبسطة: «هل اتصلت في وقت غير مناسب؟».

أي لحظة ستكون لحظة غير مناسبة، لهذا أقرت وهي تظهر نفاد الصبر:

ـ لقد وصلت لتوي من العمل!

ـ بمفردك؟

انتفضت لسماعها ذلك، وقالت:

ـ نعم لوحدي! أنا أعمل لوحدي، وأعيش لوحدي...

قال هازئاً، وغير متأثر، على عادته، بمزاجها السيء:

ـ يبدو لي أنك بحاجة إلى صحبة ما، هل ترغبين بالخروج لتناول العشاء؟

قالت بحدة: «الليلة؟».

كل ما كانت تبتغيه الليلة، هو حمام ساخن، ومن ثم الذهاب إلى السرير وقراءة كتاب لا تتطلب مطالعته الكثير من التركيز.

تهكّم ماركوس وكان قد أحس بمزاجها:

ـ ربما لا، ما رأيك لو خرجنا ليلة الغد؟

ـ سأعمل غداً في المحل حتى ساعة متأخرة من الليل.

ألحّ عليها: «إذن، ليكن ذلك ليلة السبت».

لقد قامت لتوها بوضع برنامج آخر لليلة السبت، وليس عندها أي نية في فك هذا الارتباط، فكانت مضطرة أن ترفض:

ـ أنا مدعوة لحضور حفل يوم السبت.

عرض عليها خدماته تماماً مثلما تكهنت أنه سيفعل:

ـ أستطيع مرافقتك.

ردت بامتعاض، إذ كانت ترهب هذه الحفلة بما يكفي:

ـ أوه... لا! لا أظن ذلك!

رد ماركوس بنبرة مطاطة، وبدا واضحاً أنه أساء فهم الوضع:

ـ لقد فهمت، ربما من الأفضل أن أتصل بك يوم الأحد لكي يكون باستطاعتنا مراجعة برنامج ارتباطاتك في الأسبوع القادم؟

كان باستطاعتها أن تشعر بانزعاجه من تملّصها. ولكن ربما يكون يوم الأحد وقت أفضل لتبادل الحديث، خاصة وأنها ستكون حينها قد انتهت من المهمة البغيضة التي تنتظرها. وربما يصبح باستطاعتها التفكير بنفسها، وبالانجذاب الذي تشعر به نحو ماركوس.

ردت عليه ببرودة:

ـ حسب علمي، ليس عندي أي ارتباطات للأسبوع القادم، لذلك يبدو لي أن اتصالك يوم الأحد سيكون مناسباً جداً.

هزأ منها قائلاً:

ـ ولكن ليس في الصباح الباكر، أليس كذلك؟

أبت أن تجيب عليه بتهكم، وقالت:

ـ يوم الأحد هو اليوم الذي اعتدت أن أستلقي خلاله إلى وقت متأخر.

رد عليها بصوت أجش: «سأتصل بك ثانيةً يوم الأحد».

ثم أقفل الخط بفظاظته المعهودة.

وضعت بيث السماعة مكانها ببطء هذه المرة، وهي لا تزال منذهلة من حصول ماركوس على رقم هاتفها. لقد عنى تماماً ما قاله عن رؤيتها ثانية عمّا قريب!.

إنها ترغب برؤيته. وعليها الإقرار لنفسها بذلك... على الأقل.

ولكنها قطعاً لم تكن متحضرة لرؤيته بعد لحظات من دخولها منزل باربرة وآلك ترينت، ليلة السبت!

* * *

٧ ـ من هو؟

وصلت أم بيث في تمام الساعة التاسعة من مساء السبت، وأثنت على اختيار ابنتها فستان السهرة الأسود.

بدت أمها جذابة أيضاً بفستانها الأحمر.

ـ تبدين رائعة يا حبيبتي!

ردّت بيث بسخرية وتحسّر: «وجاهزة لأي تحدّ!».

أخبرتها أمها بتجهّم:

ـ لن تواجهيه بمفردك، سيسرني جداً أن أعيده إلى حجمه الطبيعي.

أسندت بيث ظهرها إلى مقعد السيارة، وأغمضت عينيها إلى أن وصلت إلى بيت عائلة ترينت. ثم تنهدت وقالت:

ـ الناس يحبونه وتشارلز يسانده أكثر من أي وقت مضى.

دخلت بيث دارة آل ترينت، وناولت كبير الخدم معطفها وانخرطت في حديث من المجاملات الاجتماعية مع بربارا. وشعرت بأن مضيفتها كانت تفضل أن تتناول مسألة طلاقها وزواج مارتين المرتقب. وفجأة، شاهدت ما لم تكن تتوقعه: ماركوس يقف في الجانب الآخر من الصالون الأنيق يتبادل الأحاديث مع مضيفهم!.

ولاحظت بيث أن عدة نساء من الحاضرات كن يرمقنه باعجاب

واضح. وأدركت أن انجذابها له لا ريب فيه.

ـ يا للجحيم، ما الذي تفعلينه هنا؟

كانت بيث مستغرقة تماماً في التفكير بماركوس بحيث لم تنتبه إلى اقتراب مارتين منها، حتى سمعته ينطق بصوت مزعج في أذنها كلماته الغاضبة. التفتت نحوه بقدر ما أمكنها من رباطة جأش، وحيّته ببرودة:

ـ مساء الخير يا مارتين!

أطلق العنان للسانه بشدة والغضب يلتمع في عينيه الزرقاويتين:

ـ لقد سألتك ما الذي تفعلينه هنا؟

ـ أنا....

سارعت أمها للانضمام إليهما، ونظرت إليه والوعيد الشديد في عينيها:

ـ مرحباً يا مارتين!

لم يستطع مارتين أن يعاملها بطريقة فظة، فهي لا تزال زوجة تشارلز، رغم انفصالهما منذ عدة سنوات.

أحنى رأسه ليحيّيها:

ـ كاترين!

ومضت عينا كاترين بالاشمئزاز، وقد أدركت إحساسه بعدم الارتياح، وسرّها أنها وضعته في هذا الموقف:

ـ أظن أنه من الواجب أن أهنئك...

ثم أردفت بازدراء:

ـ ... وطبعاً، التعازي لبريندا!

ردّ مارتين بتوتر:

ـ أظن من الواجب تقديم التهاني إلى العروس العتيدة!

ـ حقاً؟

بدا على كاترين أنها فكرت قليلاً باقتراحه، ثم هزت رأسها وقالت:

ـ لا، أعتقد أنني كنت محقة في المرة الأولى!

ثم ألقت إليه بنظرة قاسية جداً، وأضافت ببرودة:

ـ أين هذه الفتاة المسكينة، والسيئة الحظ؟

أجاب غاضباً: «إنها تستعد، ولكن لا أريدك...».

حذرته بصوت هامس مليء بالوعيد:

ـ لا تحاول معي ألاعيب التهديد هذه يا مارتين، لقد تعاملت لسنوات مع خبير، وأنت لست من مستواه!

تحدّاها وقد عرف إلى من تلمح: «حتى الآن».

تفحصته كاترين بنظراتها رويداً رويداً، فيما كانت بيث تقف إلى جانبها وقد استولى عليها الإعجاب لتحكّم أمها بالموقف.

عنّفته كاترين:

ـ لن يحدث ذلك أبداً! أوه.. يجب أن أقرّ بأنك تتقدم جيداً لتصبح سافلاً من الدرجة الأولى مثله هو. ولكن بصراحة، لا تملك الإمكانيات لتحلّ مكانه. فنجاحك يستند إلى الآخرين، فيما أن تشارلز نجح رغماً عن الآخرين!

ـ مارتين، أنا...

لم تعرف بيث تماماً ما كان ليكون رد مارتين على تعنيف والدتها له، لأن بريندا كارليسلي انضمت إليهما في تلك اللحظة.

بدت هذه الفتاة الصغيرة السن مذهولة تماماً لرؤية بيث وأمها تتحادثان مع مارتين. فرجّحت بيث أن يكون السبب ما لفّقه مارتين من روايات عن زواجهما.

حيّتها بلطف صادق:

ـ بريندا، يا له من ثوب رائع ترتدينه!.

نظرت بريندا إليها بارتياب، وكان من الواضح أنها محترسة من سبب هذه الملاطفة. ردت عليها:

ـ شكراً، إنه لوني المفضّل.

ثم التفتت إلى مارتين وسألته:

ـ كنت على وشك أن أسألك عن أخبار كلويه.

تحدّت نظراته الغاضبة وأضافت:

ـ لا أعتقد أنه من اللائق أن أتحدث عن أشخاص لا تعرفهم بريندا.

ثم التفتت إلى بريندا وسألتها: «هل قابلت كلويه؟».

لم تظهر بريندا أي نوع من الانفعال حول ذكر هذا الاسم:

ـ أنا... لا أظن ذلك.

لم تشك بيث في صحة ذلك. اصطنعت ابتسامة حلوة وقالت:

ـ يجب أن تطلبي من مارتين أن يعرّفكما إلى بعضكما البعض... أو ربما أستطيع أن أقوم...

قاطعها مارتين بحدة وهو يلقي عليها نظرة قاسية باردة:

ـ بريندا، يجب أن نذهب لإلقاء التحية على آل دانيلز. المعذرة!

تمكّنت بيث وأمها من سماع بريندا تسأله بهمس بينما كانا يبتعدان عنهما:

ـ من هي كلويه؟

علقت بيث بنبرة جافة فيما كانت تجيل ناظريها في الغرفة بحثاً عن ماركوس:

ـ يا ليتني أستطيع سماع جوابه!

كان ماركوس، في تلك اللحظة يتبادل الحديث مع باربرا، وفي الوقت ذاته ينظر مباشرة إلى بيث.

أومأت برأسها اقراراً برؤيتها له. ثم اكتست وجنتاها بالاحمرار

وهي تشاهده يعتذر من باربرا، ويعبر الصالون مقترباً منها.

ـ وأنا كذلك...

قطعت كلام أمها على عجل وهي تقول:

ـ ماما، هنالك شخص على وشك الانضمام إلينا. لا تأتي على سيرة مارتين في سياق حديثك، مهما كان!

بدت الدهشة على أمها: «ولكن...».

حيّته بيث حالما وصل بقربها:

ـ مرحباً يا ماركوس، يا لها من مفاجأة!

رد عليها برقة، وهو يحدق للحظة وجيزة إلى شفتيها: «بدا لي أن الأسبوع القادم بعيدٌ جداً!».

لم تستطع بيث أن تصدق مدى تأثير هذا الرجل عليها.

تابع بصوت أجش:

ـ لقد قلت إنك ذاهبة إلى حفل، لذلك انهمكت في التقصي عن الحفل الذي ستقصدينه.

ثم أضاف، بينما ظهرت على أمها ملامح الفضول:

ـ وغامرت بالتكهن في أنك ستحضرينه بمفردك!

تخلت بيث عن التساؤل حول كيفية حصول هذا الرجل على المعلومات التي يريدها. وتعلمت أن قبول قيامه بذلك أسهل عليها من محاربته!

قامت بيث بواجب التعريف بين أمها وماركوس.

ـ كاترين بالمر، أمي... ماما، ماركوس غريفين!

ولم تضف شيئاً عنه لأنها لا تعرف عنه غير اسمه وإصراره على ملاحقتها، وهذا أمر لم تخبر به أمها!

صافحت كاترين ماركوس وهي تقول بفضول: «من شركة غريفين العقارية؟».

لم تفاجأ بيث بأن تكون أمها قد سمعت بهذا الاسم، فعالم الأعمال عالمها.

رد عليها ماركوس بخفة: «من مؤسسات بالمر الصناعية؟».

ابتسمت كاترين، دون أن تبدي أي اضطراب حول هذا الخطأ، لأنها اعتادت عليه:

ـ كلا، أنت تتكلم عن زوجي الواقف هناك! أما أنا، فأعمل في مجال الألبسة والأزياء.

كان في ذلك وصف قاصر تماماً لأعمال أمها الناجحة، فقال مبتسماً:

ـ ألا تعملين أنت وزوجك في المجال ذاته؟.

ردت كاترين عليه مؤنبة، دون أن يبدو عليها البتة أنها أهينت بافتراضه:

ـ لا تقل لي إنك من الرجال الّذين لا يؤمنون في أن يكون للمرأة أعمالها الخاصة!

ـ تشارلز بالمر، رجل أعمال معروف!

فابتسمت كاترين وقالت:

ـ أنا أيضاً معروفة جداً في مجال أعمالي. وآخر ما أريده، هو أن ينُسب نجاحي إلى زوجي.

التفت ماركوس عندها بسرعة نحو بيث، وقال:

ـ وماذا عنك، يا بيث، هل نجحت اعتماداً على والديك؟

تجهّم وجهها وأجابت بإيجاز:

ـ هذا يعتمد على ما تعنيه بكلمة نجاح.

ابتسم ماركوس، ثم عاد يحدث كاثرين:

ـ بالطبع كان يجب أن أدرك من أنتِ فوراً، فلا يمكن للمرء أن يخطىء التشابه بينكما!

ومضت عينا كاترين من هذا الثناء.

ـ لا أعرف كيف تعارفتما على بعضكما البعض، ولكني سررت لالتقائكما! كما أنني أتوق لسماع مثل هذا الثناء ولساعات!.

رفع ماركوس حاجبيه الداكنين وقال: «لقد قابلت بيث في إيطاليا!».

التفتت كاترين نحو ابنتها وتعابير وجهها تقول: أهذا هو الرجل الجدير بالاهتمام الذي التقيت به في إيطاليا؟.

شعرت بيث بالإحراج، وخشيت أن تستنتج أمها أموراً خاطئة. وهي على وشك أن تفعل ذلك في هذه اللحظة بالذات.

بيث تعرف أمها بما يكفي لتدرك أنها لن ترتاح حتى تخبرها بتفاصيل كل ما حدث في إيطاليا.

استفهمت كاترين بطريقة لطيفة جداً: «التقيتما في فيرونا؟».

هز ماركوس رأسه وقال: «وفي البندقية أيضاً!».

اتسعت عينا كاترين وحدقت إلى بيث بنظرات متهمة، ثم التفتت نحو ماركوس وقالت بتهكّم:

ـ يا لها من صدفة، أن يتطابق برنامج عطلة كل منكما مع الآخر، ليس لمرة واحدة فقط بل مرتين!

فردّ عليها ماركوس متشدقاً:

ـ لم يكن الأمر هكذا على الاطلاق. وأنا لا أؤمن بهذا النوع من الصدف!

كان في الحقيقة يعترف لأمها أنه لاحقها في إيطاليا، ولكنه لم يدرك ما ستستنتجه أمها من افتراضات.

مازحته كاثرين: «صدفة كمثل هذه الليلة؟».

ـ لقد سبق وأوضحت أن وجودي هنا أبعد ما يكون عن الصدفة.

ثم عرض عليهما بأدب:

ـ والآن هل تسمحان لي بأن أجلب لكما الشراب؟

ردت كاترين بنبرة جافة: «أظن أنني بحاجة لذلك!».

ـ وأنت يا بيث؟

قبلت عرضه بتململ وهي تدرك من التواء شفتيه بسخرية، أنه واعٍ تماماً لما فعل لتوه.

ـ سأكتفي بكوب عصير، شكراً!

ـ بيث...

دافعت عن نفسها بسرعة حالما ذهب ماركوس لإحضار الشراب وذكرتها وهي متجهمة بسبب وجودهما هناك.

ـ ماما، ليس الآن! لم نأتِ إلى هنا من أجل مناقشة أمر ماركوس!

ابتسمت أمها برقة:

ـ لم لا؟ إنه رجل جدير بالاهتمام، لم ألتقِ بمثله منذ أعوام.

ردت بيث بصورة مبهمة: «لقد قلت لك ذلك!».

وعادت تجول بنظرها في الغرفة بحثاً عن مارتين وبريندا، فرأتهما ضمن مجموعة من المدعوين عند الجهة الأخرى من الغرفة. وواصلت بريندا استراق النظر إليها بين آونة وأخرى.. يا للمسكينة، كان من الواضح أنها أحست بأن بيث تشكل تهديداً للسعادة التي أخذت تستمتع بها مؤخراً.

لوّحت والدة بيث بيدها دلالة على عدم اقتناعها واستيائها، ثم لامت ابنتها على تصرفها وهي تنتهد:

ـ ولكنك لم تخبريني الأشياء الأخرى عنه. هذا الرجل جذاب جداً.

ردت بيث وهي لا تزال تراقب مارتين وبريندا: «كل ذلك واضح جداً!».

ظهر مارتين كعادته متمالك النفس، كما واظب على استراق النظر إليها من حين إلى آخر، وكأنه لا يزال يخشى أن تفتعل مشكلة علنية.

ألحّت أمها بحماس: «أنت تدركين أنه جذاب، أليس كذلك؟».

أقرت مرة ثانية: «إنه جدير بالاهتمام».

تنهدت حين لاحظت تعابير الخيبة على وجه أمها:

ـ ماما، يجب أن أعالج مشكلة مارتين، قبل أن أفكر بأي شخص آخر.

عنّفتها أمها قائلة: «اللعنة على مارتين! لقد حان الوقت لكي تفكري بنفسك قليلاً».

ردت بيث: «ربما بعد أن أنقذ بريندا».

ـ وفي الوقت ذاته ستدعين رجلاً مثل ماركوس غريفين يفلت من يديك!

رددت كلمات أمها وهي غير مصدقة ما سمعته:

ـ يفلت مني؟ أنا بالكاد أعرف هذا الرجل.

ـ ولكن من الواضح أنه يرغب بتوثيق معرفته بك جداً، و...

عاد ماركوس وناولهما الشراب، فيما رمته بيث بنظرات حادة، وهي تتساءل بسرها عن قدر ما سمعه من حديثها مع أمها، وأملت ألاّ يكون الكثير:

ـ إليكما الشراب ولنشرب نخب مستقبل أفضل!

كان يحدق إلى بيث بنظرات ثابتة.

بدا على أمها السرور البالغ لمجرى الأحداث هذا. وعرفت بيث أنها ستواجه المتاعب بعد انتهاء السهرة، هذا إذا لم يكن قبل ذلك...

ـ هلاّ عذرتماني لحظة؟

كانت مضطرة للمجازفة بترك أمها بمفردها مع ماركوس لبضع دقائق، بينما هي تحاول التكلم مع مارتين وبريندا مرة ثانية. أوضحت وهي تتجاهل نفاد صبر أمها:

ـ ثمة شخص يجب أن أتحدث معه قليلاً.

اتجهت إلى حيث هما واقفان ونادت على مارتين بتشدق، ولم يسعدها عندما لاحظت أن بريندا توترت بشكل ظاهر.

شدّ مارتين أصابعه على ذراع بريندا. في حين حيّت الرجل والمرأة اللّذين كانا يتبادلان الحديث مع مارتين وبريندا:

ـ نيك، ماندي... كيف حالكما؟

أجاب نيك باختصار:

ـ على ما يرام!

ثم التفت نحو زوجته وأضاف بلطف:

ـ يجب أن نذهب يا حبيبتي لإلقاء التحية على شيلا، لقد سررنا لرؤيتك ثانيةً يا بيث!

ولم يبق لدى بيث أدنى شك في ما يظنه معظم أصدقاء والدها وأصدقاء مارتين حول تحطم زواجها. لقد باتت فجأة غير مقبولة اجتماعياً.

حاول مارتين لجم غضبه ثم انفجر قائلاً:

ـ ما الذي تريدينه الآن يا بيث؟ أنت تزعجين بريندا بوجودك. لقد انتهى ما بيننا، ألا تستطيعين تقبّل ذلك؟

يا لوقاحة هذا الرجل اللعينة. إنه يحاول أن يعطي انطباعاً بأنها ما زالت تسعى خلفه!.

هزت رأسها باشمئزاز، وأوقفته عند حدّه قائلة:

ـ تغمرني البهجة لأنني استطعت التخلص منك. لم أودّ التحدث معك يا مارتين على الاطلاق، بل كل ما أردته هو أن أسأل بريندا، إن

كانت تودّ الخروج معي لتناول القهوة، فلدينا أمور كثيرة نتحدث عنها.

حذّرها بشراسة: «ابتعدي عن بريندا!».

ردّت عليه بنبرة جارحة وهي تنظر إلى بريندا:

ـ أنا متأكدة من أن بريندا قادرة تماماً على الإجابة بنفسها، إلا إذا كنت قد أخضعتها وسلبتها شجاعتها.

هبّت بريندا بسخط للرد على هذا التحدي:

ـ طبعاً أستطيع التكلم عن نفسي. وأنا لا أرى ما يمكننا التحدث عنه. بيث، لقد كنت متزوجة من مارتين، وفشل هذا الزواج. دعي الأمور تذهب في حالها، فلا يمكنك مواصلة إذلال نفسك بهذه الطريقة، أنا أعرف أنك لم ترغبي في الطلاق...

عنّفتها بيث:

ـ أوه.. لقد رغبت حقاً بالطلاق، غير أنني لم أكن أريد الطريقة التي تم بها ذلك.

ردّت بريندا بانزعاج واضح:

ـ إذاً ما كان يجب أن تخوني... أوه، هذا سخيف جداً، أنا ومارتين نحب بعضنا البعض، وسوف نتزوج. وما عليك سوى تقبل هذا الأمر!

تنهدت بيث بحسرة: «ليتني أستطيع، ولكن أنا أعرف...».

ظهر ماركوس فجأة إلى جانب بيث، وأخذ ينظر إلى الجميع بدهشة وكأن مقاطعته لما بدا أنه نقاش شخصي محتدم، قد أذهلتهم ولجمت ألسنتهم:

ـ لقد انتهت الدقائق التي طلبتها، هل قطعت عليكم الحديث؟

كانت بيث أول من عاد إلى وعيه، وألقت نظرة توسل إلى أمها. غير أنها لم تقابل بغير نظرات أسف لعدم استطاعتها إيقاف ماركوس

عن الانضمام إليهم.

التفتت بيث إلى ماركوس وقالت: «لا، اطلاقاً!».

ثم نظر ماركوس إلى مارتين متمعناً:

ـ ألن تقدميني إليهم؟

يا إلهي، هذا آخر ما كانت ترغب به، لكن لم يبقَ عندها أي خيار آخر بعد أن أصبح واقفاً بينهم. ولكن المشكلة هي كيف ستستطيع القيام بذلك، من دون أن تقول أشياء محرجة جداً.

ـ ماركوس، أقدم لك بريندا كارليسلي وخطيبها مارتين برا... بالمر.

تحاشت الأمر، بعدما كادت أن تلفظ اسم عائلة مارتين، وقدمته باسم عائلتها الذي اختاره، بدلاً عن الاسم الذي أعطي له عند الولادة. ثم أضافت:

ـ مارتين، بريندا، أقدم لكما ماركوس غريفين!

تصافح الرجلان وأقرّ مارتين بسماعه الاسم: «غريفين!».

رد ماركوس في المقابل وهو ينظر إلى بيث بفضول: «بالمر، هل من صلة قرابة بينكما؟».

لعقت شفتيها الجافتين: «في الواقع...».

أجاب مارتين بتجهّم: «لا، لا قرابة على الاطلاق!».

والتفت إلى بريندا قائلاً: «لقد حان وقت المغادرة يا حبيبتي».

ابتسمت بريندا له بتودد قبل أن تلتفت إلى ماركوس، وتقول بنبرة باردة:

ـ سررت بلقائك، بيث...

ـ سوف أتصل بك.

استدار مارتين بحدة وقال محذراً:

ـ ستكون بريندا منشغلة جداً بتحضيرات حفل الزفاف خلال

الأسابيع القادمة.

ألحّت بيث باستهزاء:

ـ لا أظن أنها ستكون منشغلة إلى درجة تمنعها من الثرثرة حول فنجان قهوة!

تنفس مارتين بغضب وهو يحاول السيطرة على أعصابه بصعوبة ثم قال بجفاء: «سوف نرى!».

بدت خطواته مضطربة وهو يدفع بريندا على عجل نحو باب الخروج.

راقبه ماركوس بدقة ثم تمتم وهو يهز برأسه وينظر إلى بيث:

ـ رجل غريب!

ثم استدرك قلّة تهذيبه: «أنا آسف! لم أنتبه أنه من أصدقائك».

غمغمت وهي تريد بشدة تغيير الحديث:

ـ ليس تماماً... أنا مسرورة فعلاً بلقائك مرة أخرى.

أدهشها كم كان ذلك صحيحاً.

رد عليها متهكماً:

ـ هل هذا صحيح؟ كنت أشك بحفاوة استقبالك!

كانت مسرورة لرؤيته أكثر من اهتمامها بالتفكير في الأمر. ولكن ما جرى بينها وبين مارتين أزعجها وجعلها تشعر بالصداع.

نظرت حولها بحثاً عن أمها، وانقبضت أساريرها عندما لم تجد أثراً لها.

تكهّن ماركوس بما تفكر به وقال:

ـ لقد اضطرت لمغادرة الحفل!

ثم ابتسم عندما استدارت بيث نحوه بنظرات استفهام:

ـ لقد أكدت لها أنني سأوصلك إلى بيتك.

اللعنة!... عرفت بيث جيداً أن أمها لم تضطر إلى المغادرة

اطلاقاً، ولم يخفَ عليها أن كاترين فعلت ذلك لتقرّب المسافات بينها وبين ماركوس، ولكن ما لم تكن تعلمه هو أن ماركوس ليس بحاجة إلى أي مساعدة في هذه المسألة، فلديه القدرة الكاملة لتحوير الأوضاع بما يناسبه.

اقترحت عليه وهي تعرف تماماً أنه لن يسمح لها بذلك:

ـ باستطاعتي العثور على سيارة أجرة بسهولة!

كان من الواضح أن ماركوس وجد في والدة بيث حليفاً يستطيع مساعدته.

تشدق ماركوس، وقال: «لا أعتقد ذلك!».

جال بنظراته في الغرفة المزدحمة بالمدعوين ثم قال:

ـ هل أنت على استعداد للمغادرة؟ في الحقيقة، أنا لا أحبذ مثل هذه الحفلات ولا أجدها مسلية!

أقرّت له: «وأنا كذلك!».

أمسك ماركوس بذراعها بحزم وقال: «إذن لنستأذن وننسحب!».

لم يكن بوسع بيث التكهن بما سيثيره خروجهما معاً من فضول وأقاويل.

رمقتهما باربرا بفضول وهما يقتربان منها وسألتهما:

ـ أتغادران الآن؟.

ظهر من نبرة صوتها أنها تأسف حقاً لرحيلهما. والتفتت نحو ماركوس وعلى وجهها ابتسامة عريضة:

ـ أخيراً بتّ تأتي إلى لندن يا ماركوس. لقد سررت جداً عندما اتصلت بي هذا الصباح. ما الذي جاء بك إلى انكلترا في هذا الوقت؟

أجابها ماركوس دون ابتسام: «إنها مسألة عائلية!».

ظهرت على باربرا الدهشة بسبب جوابه الفظ:

ـ أوه، حسناً أتمنى أن تأتي لزيارتنا مرة أخرى عمّا قريب، هل ستفعل؟

ضحكت بيث برقة عندما أصبحا في الخارج:

ـ أظن أنك حطمت كل أوهام باربرا عن قصة حب كبيرة تنشأ!

فتح ماركوس باب سيارته الجاغوار الخضراء، وقد بدت عليه الحيرة لهذا الادعاء:

ـ حقاً؟ من المؤكد أن الأشخاص الموجودين في الداخل يعتقدون أننا التقينا للتو.

دخل السيارة وجلس إلى جانبها.

حاولت صرف النظر عن هذا الحديث:

ـ نعم، ولكن... أنت تعرف كيف تحاك الأقاويل.

لم يكن باستطاعتها أن تشرح له بالكامل دون أن تأتي على ذكر مارتين في مجرى الحديث. ولم يكن عندها أي نية لفعل ذلك.

تجهّم وجه ماركوس: «ماذا تقولين؟».

هزت رأسها وقالت: «ليس الأمر مهماً. هل أرشدك إلى بيتي أم...».

لوى شفتيه وقال متشدقاً: «أظن أنه بإمكاني تذكّر الطريق».

فاسترخت على مقعدها بينما انطلق ماركوس بالسيارة في كل ثقة وثبات.

بدا وجهه أكثر قساوة من قبل، بينما تركزت نظراته على القيادة.

أمّا هي، فراحت تفكر في أن هذا الرجل قادر على القيام بأي شيء يصمم عليه.

هل هي واقعة في حبه؟

ألقت إليه نظرة واجمة. بالطبع لا. لا يمكنها أبداً أن تحب أي رجل مرة أخرى، فالحب مؤلم جداً!

ولكن من يملك حرية الاختيار عندما يتعلق الأمر بالوقوع في الحب؟

ـ هل أنت مرتاحة؟.

نظرت نحوه بحياء وغرقت في التفكير بحيث لم تلاحظ أن السيارة توقفت. خرج ماركوس واستدار ليفتح لها الباب..

ـ مرتاحة جداً! هل ترغب بالصعود لاحتساء فنجان قهوة؟

رد عليها متشدقاً:

ـ اعتقدت أنك لن تدعونني أبداً.

في الحقيقة، كانت تشعر بالتوتر لكونها معه بمفردها...

غير أن حضوره بدا لها مميزاً في منزلها...

ـ قهوة؟

ودهشت عندما لحق بها ماركوس إلى المطبخ. ونظرت إليه متفاجئة عندما أمسك بمعصمها.

رمقها بتجهم، وداعب يدها وهو يسأل: «من أي صنف كان هو؟».

ابتلعت ريقها بصعوبة: «هو؟».

يا إلهي! من المؤكد أن ماركوس ليس رجلاً آخر يحاول عقد صفقة مع أبيها، والوصول إليه من خلالها؟ هذا يوضح تصميمه على ملاحقتها منذ البداية. ولكن إن كان الأمر كذلك، فلن تستطيع تحمله!

حدق إلى عينيها بنظرات ثاقبة، وقال برقة:

ـ أقصد الرجل الذي وضعت خاتمه في إصبعك!

اصطبغ وجهها باللون الأحمر الداكن فجأة، وجفّ حلقها:

ـ كيف... عرفت بذلك؟.

داعب الاصبع الذي كانت تضع فيه خاتم الزواج وأجاب:

ـ يترك الخاتم دائماً أثراً على الأصابع.

هبّت للدفاع عن نفسها وقالت بنبرة قاسية:

ـ لقد انتهى أمر هذا الزواج منذ زمن طويل!

وتساءلت في سرها عما قد تكون ردة فعله، إذا علم أن مارتين هو ذاك الرجل. بات باستطاعتها رؤية مارتين على حقيقته في الوقت الحالي بعدما زالت غشاوة الحب عن عينيها. ولكنها لا تريد أن يعرف ماركوس بمدى غبائها.

أنهت كلامها: «هذا ليس مهماً!».

سألها بنبرة جارحة: «لقد كنت متزوجة؟».

ـ ولكنني لم أحاول أن أخفي ذلك عنك! كل ما في الأمر أنك لم تسأل، وأنا لم أخبرك.

سألها بصوت خفيض:

ـ وعُدت لاستخدام اسم بالمر؟

تنفست بيث بعمق، فلم يكن عندها من حجة مقابل هذا الادعاء، إلا الدخول في تفاصيل تبديل الأسماء واتخاذ أسماء أخرى. ولم تكن تحبذ الدخول في هذا الموضوع.

ردت بعصبية زائدة:

ـ اسمع يا ماركوس، لقد كنت متزوجة ـ لفترة قصيرة ـ وقد فشل هذا الزواج. لا داعي للتحدث في هذا الموضوع. والآن، إذا كان الأمر يزعجك...

أجفلت بيث عندما ضمّها ماركوس إليه.

تسارعت نبضات قلبها وشعرت بالنار تسري في جسمها، ووهنت ساقاها.

استمر العناق طويلاً إلى أن أحست بأن جسمها أخذ بالذوبان ليصبح جزءاً من جسم ماركوس. ولم يسعها إلا التحديق إليه بذهول

عندما ابتعد عنها أخيراً.

كان وجهه ينبض بكافة الأحاسيس المعبرة.

صاح بها وهو يستدير على عقبيه ويخرج من المطبخ:

ـ هذا ما أشعر به من انزعاج!

سمعت بعد ثوان باب الشقة يغلق بلطف.

تركها لأفكارها، فلم تعلم مدى تأثير هذا الأمر عليه... تركها بقرب القهوة التي كانت تغلي دون أن تجد من يشربها....

* * *

٨ ـ ألاعيب

شربت بيث القهوة وعيناها مثقلتان من قلة النوم. فقد أمضت ليلة طويلة من الأرق والأفكار المتضاربة.

كانت ضائعة ممّا حدث ليلة أمس، وأعادت التفكير في ذلك مراراً وتكراراً، ومع ذلك لم تصل إلى معرفة فيما إن كان زواجها السابق من مارتين أزعج ماركوس. هل كان مستاءً من ذلك الزواج، أو لم يحبّذ فكرة أن تكون متزوجة سابقاً؟ أو أنه عدم اكتراث أو ماذا؟. وحارت بيث طوال الليل من دون أن تجد أي جواب على تساؤلاتها. كما أنها لم تعرف إن كانت ستراه ثانية أم لا.

تسارعت نبضات قلبها حين بدأ الهاتف بالرنين، وثار غضبها حين وقعت القهوة على أصابع قدميها.

وضعت الكوب على الطاولة بقوة، وأسرعت ترفع سماعة الهاتف وترد بحدة: «نعم؟».

سألتها أمها بلهفة: «حسناً؟».

ـ حسناً، ماذا؟

وأخذت تدعك أصابع قدميها التي أحرقتها حرارة القهوة.

ظهرت الحيرة على أمها:

ـ يبدو لي من صوتك يا حبيبتي، أنك لست مسرورة!

ـ ربما لأن القهوة الساخنة وقعت عليّ، في عجلتي لأرد على الهاتف!

ـ أوه!

اعتذرت بيث لأمها عن مزاجها السيء:

ـ أنا آسفة يا ماما. لكنني لا أشعر تماماً بالسرور هذا الصباح!

ـ وماركوس؟

كانت لا تزال تشعر بالانزعاج عندما ردت:

ـ ماذا تريدين أن تعرفي عنه؟

ـ أوه يا عزيزتي، ما الخطب؟

تهكّمت بيث قائلة:

ـ أتقصدين بعد محاولتك الفنية الرائعة للتوفيق بيننا؟

قالت أمها والاشمئزاز بادٍ في صوتها: «ألم يوصلك إلى البيت؟».

ردت عليها بتحدٍ:

ـ بلى، لقد رافقني إلى البيت، ولكنه غادر ثانيةً إن كان سيكون هذا سؤالك التالي.

تنهدت أمها لأن ما تقوله ابنتها صحيح، مع أنها حاولت الاحتجاج:

ـ قطعاً لا.. أو حسناً، ربما كنت أبالغ في وضع الافتراضات، ولكنه رجل ساحر وجذاب يا بيث، ولا أدري كيف استطعت مقاومته!.

ردت عليها بجفاء: «ما الذي يجعلك تظنين أنني فعلت؟».

فقالت وقد بدا الاستغراب في صوتها: «بيث، ما الأمر؟».

ردت ساخرة من نفسها:

ـ ماركوس رجل لطيف على ما يبدو، ولكنه منزعج من كوني

كنت متزوجة سابقاً ـ وطبعاً مطلقة!

سألتها أمها والحيرة بادية في نبرة صوتها: «لماذا؟».

لماذا؟ ليتها تعرف الجواب. لقد أمضت ساعات، وهي تحاول العثور على إجابة لهذا السؤال.

استطردت أمها ببطء:

ـ أعني... هذا يعتبر أمراً عادياً في أيامنا هذه. ورجل من عمره قد يجد صعوبة كبيرة في العثور على امرأة لم تكن على علاقة جدية بأحدهم في السابق!

ردت بيث بامتعاض:

ـ ولكن هذا لا يعني أنه يجب أن يتقبل ذلك!

ـ ولكن فشل زواجك لم يكن بسببك يا عزيزتي. ولو كان الخيار لك لـ....

ـ ولكن الخيار لم يكن لي، وماركوس غير مرتاح لهذا الوضع.

أنبتّها أمها:

ـ ولكن، هذا الرجل لحق بك من فيرونا إلى البندقية ومن ثم إلى هنا، ولا أستطيع أن أصدق أنه يجد صعوبة في تقبل هذا الأمر.

أجابت بيث باستخفاف: «ربما لم يدرك مشاعره حينها».

وتذكرت أنه قال لها في الليلة الماضية، إن الخاتم الذي يلبس لفترة من الزمن يترك أثراً ظاهراً. ومن المؤكد أن هذا الأثر كان ظاهراً عندما كانا في ايطاليا...

اقتنعت أمها بهذه الحجة وقالت:

ـ ربما أنت على حق. ولكنني لا أستطيع أن أصدق فعلاً أن هذا الرجل محدود التفكير، خاصة أنه لا يعرف أي شيء عن الظروف التي أدّت إلى طلاقك.

لو عرف ماركوس الأسباب التي دفعت مارتين إلى التخلّي عنها،

وعرف بعدم قدرتها على الانجاب، لتعاطف مع الرجل الآخر، فانجاب الأولاد مسألة مهمة لكثير من الرجال، وبيث ليست المرأة الأولى ولا الأخيرة التي تنبذ من أجل هذا السبب. على الأرجح أن ماركوس هو أيضاً من الرجال.

ـ هذا غير مهمّ يا ماما...

انتفضت أمها قائلة:

ـ طبعاً مهم. لن أدع مارتين ووالدك يواصلان تحطيم حياتك.

ردت بيث باستياء:

ـ هذا هو الأمر الآخر الذي شغل بالي الليلة الماضية. ماذا لو تقبّل ماركوس فشل زواجي السابق، ثم اكتشف أن مارتين، الذي قيل له أن لا قرابة بيني وبينه على الاطلاق، هو بالفعل زوجي السابق؟

لم تدرك أن في ذلك مشكلة حتى ساعات الليلة الماضية المتأخرة، وقد يتحول ذلك إلى مشكلة لا يمكن حلّها.

ـ هذه مشكلة مارتين...

أقرّت بيث: «لا، إنها مشكلتي».

طيبّت أمها خاطرها:

ـ أعتقد يا حبيبتي أنك تتوهمين.

ـ ولكن...

مازحتها أمها:

ـ لست على وشك الزواج من هذا الرجل.

تورّد وجه بيث خجلاً وأجابت بارتباك:

ـ لا. الأمر فقط.. أنني... أنني أشعر بارتياح أكثر حين أكون صادقة منذ البداية في هذه الأمور.

ولكن مارتين... تنهدت أمها وقالت:

ـ حبيبتي، يجب أن تنسي أمر مارتين!

فردت بيث:

ـ هذا جلّ ما أريده، ولكن لدي شعور أنه لن يتركني وشأني.

كانت محقة في ذلك! فقد جاء في الصباح التالي إلى منزلها فاستشاط غضبها لأنه تجرأ وفتح الباب بمفتاحه الخاص ودخل عليها دون استئذان!

كانت جاثية على ركبتيها تنظف أرض المطبخ عندما سمعت صوت المفتاح، تبعه صوت اغلاق الباب!

نهضت على مهلها وخرجت إلى الصالون وخرقة التنظيف المبللة لا تزال بيدها. فرأت مارتين وسط الغرفة، ينظر إليها وتعابير التحدي ظاهرة على وجهه والغضب بادٍ في عينيه. وعزمت في سرها على تغيير قفل الباب، حالما يغادر!

مدت له يدها وقالت: «أعطني مفتاحك».

لم تدهش عندما لم يبادر إلى اخراجه من جيب سترته. ردّ متهكماً:

ـ إنه مفتاحي، أليس كذلك؟

صرخت به: «وأنا أريد استرجاعه!».

هز كتفيه استخفافاً ووضع يده في جيبه:

ـ ولماذا تهتمين؟ أنا متأكد أنك ستغيرين القفل ما إن أغادر.

حدقت إليه وهي تشعر بالكراهية نحوه في هذه اللحظة أكثر من أي وقت مضى، هي التي ظنت ذات مرة أنه رجل رائع وأفضل حتى من أبيها. ولكن كلاهما استغلاها وخدعاها.

سألته بنبرة فظة: «ما الذي تريده يا مارتين؟».

لم يجبها فوراً، بل أخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ويلتقط أغراض الزينة ثم يعيدها إلى مكانها.

أوشكت بيث على الانهيار حين عاد ينظر إليها، وتعابير التهكم تعلو وجهه.

تشدق قائلاً: «لقد أجريتِ بعض التغييرات».

عنّفته بيث:

ـ لم أشأ الاحتفاظ بأي شيء يذكرني بالغلطة التي اقترفتها في زواجي منك.

فنظر إليها بترفّع وقال ساخراً:

ـ ثقي أنني أنا الذي ارتكبت الخطأ.

كررت برباطة جأش، ودون أن تنزعج اطلاقاً من نبرة صوته الموبخة.

ـ ما الذي تريده يا مارتين؟

هز مارتين كتفه باستخفاف وتصلّبت أسارير وجهه:

ـ أريدك أن تبتعدي عن بريندا لا أريدك أن تقتربي منها بأي شكل مرة أخرى.

ـ هل ما زلت تقابل كلويه؟

فأجابها وقد أعماه الغضب: «هذا ليس من شأنك!».

قالت دون أن يخامرها أي شك:

ـ هذا يعني أنك ما زلت تقابلها وعلاقتك بـ كلويه هو شأني تماماً. لقد أجهضت جنيني، بسبب علاقتك بها!

تمنت لو استطاعت التحكم بالانفعالات التي بانت من صوتها، ولكن بسبب علاقة مارتين بتلك المرأة، لن تستطيع بيث أن تختبر روعة نمو الحياة في داخلها مرة ثانية، ولن تستطيع أبداً أن تحمل طفلاً من رحمها بين يديها.

قال مارتين: «المرارة عاطفة مقيتة!».

فردّت باشمئزاز:

ـ لقد تجاوزت الشعور بالمرارة منذ وقت طويل، لكنني لن أقف مكتوفة اليدين وأشاهدك تستغل فتاة يافعة أخرى مثلما فعلت بي!

ـ لقد خسرت جنينك لأنك بالغت في ردة فعلك.

قاطعته بيث بحدة:

ـ بسبب ما سمعت! لقد كنت على فراشنا الزوجي، تتحدث عن زواجنا مع عشيقتك، وتؤكد لها أنه سيكون باستطاعتكما الزواج حالما ألد طفلي.

بدا أنه تفاجأ لكونها سمعت ذلك القدر من محادثتهما، ولكنه تمالك نفسه بسرعة وقال دون إبداء أي تعاطف:

ـ أي امرأة مكانك، ما كانت بقيت تسترق السمع بعد ما رأته.

دافعت بيث عن نفسها بانفعال:

ـ لم أستطع التحرك، لم أصدق ما رأيته. فقد كنت حتى تلك اللحظة أظن أنك تحبني. ماذا أردتني أن أفعل بعد أن اكتشفت بأن زواجي مجرد صفقة بالنسبة لك.

عنفها باشمئزاز:

ـ ولهذا تصرفت مثل ولد غير ناضج، وأجهضت ابني!

اتهمته بعنف:

ـ ابنك الذي لم يكن إلاّ خطوة أخرى لارضاء طموحاتك. هذا كل ما كان يعنيه لك!

شهق مارتين بقوة ثم قال:

ـ لن تساعدك اثارة الماضي في أي شيء...

ـ هل ما زلت تقابل كلويه؟

أجابها بعنف: «نعم!».

تنفست وكأن حجراً على صدرها:

ـ إذن ما زال الماضي مهماً جداً في هذه الحالة، خاصة بالنسبة

إلى الشابة التي ستتزوجها.

قبض يديه بشدة وقال:

ـ إذا تدخلت بعلاقتي مع بريندا فسوف...

تحدّته بيث بحيث تردد في تهديده: «نعم؟».

قال بصوت هادىء مليء بالوعيد:

ـ لا تقدمي على ذلك بيث!

سرت قشعريرة خوف في جسدها، ولكنها احتفظت ظاهرياً برباطة جأشها وقالت له بهدوء:

ـ يجب التصدي لأمثالك وأمثال تشارلز من الرجال!

قال ساخراً:

ـ وأنت من سيقوم بذلك! احترسي يا بيث، فمن المحتمل أن تتأذي من ذلك.

ضحكت بخشونة وقالت:

ـ لم يعد بإمكانك إيذائي أكثر مما فعلت.

ـ لا تعتمدي على ذلك.

فأجابته بحزم:

ـ لن أتراجع يا مارتين، بريندا ليست إلا طفلة، وعلى أحدهم أن يحاول حمايتها منك.

انتفض بها قائلاً: «أنت حتى لا تعرفينها!».

تابعت باشمئزاز:

ـ أعرفها بما يكفي لكي أدرك أنك لا تستحقها. كما لا أعتقد أنك تستحق أي امرأة غير كلويه.

لوى فمه وقال: «ستكون بريندا زوجة سعيدة معي».

انتفضت بيث قائلة: «أحقاً؟ أما أنا فلم أكن سعيدة».

ظهر التهكم على قسمات وجهه وقال موبخاً:

ـ لا، لم تكوني كذلك! اعترفي يا بيث بأنك كنت، حتى سماعك الحديث الذي دار بيني وبين كلويه، سعيدة تماماً معي!

صاحت به:

ـ هذا ليس صحيحاً، وعليك أن تعترف، أنني لم أكن أكثر سعادة منك.

ـ هذا كذب!..

ـ لا، يا مارتين، إنها الحقيقة! ظننت أن هذا الجانب من زواجنا لم يكن بأهمية حبي لك. ولكنني اكتشفت أن حتى هذه السعادة كانت مبنية على الأكاذيب. أكاذيبك!

رد عليها وقد امتلأت عيناه بالكره:

ـ لقد كنت سعيدة يا بيث ووثقت بي بالكامل. وليس لدى بريندا أي سبب يدفعها إلى عدم الوثوق بي.

سخرت منه بيث:

ـ تتزوجها وتنال غايتك منها ثم تتخلّى عنها مثلما كنت عازماً أن تفعل بي.

حذرها بقسوة ثانية:

ـ لا تتدخلي بهذا الأمر يا بيث!

تحدته قائلة: «وإلا ماذا؟».

صاح بها: «وإلاّ لن أكون مسؤولاً عن النتائج!».

اتجه نحو الباب وهو يكرر:

ـ ابتعدي عن بريندا يا بيث، فأنا لن أسمح لأي شيء أو أي شخص أن يعسر الأمور هذه المرة!

ـ لن أتراجع، ولن أبقى مكتوفة اليدين! يجب إيقافك عند حدك.

أمسك ذقنها وحدّق إليها:

أكون لطيفاً مع من يقدم على إحباط مخططاتي.

بدت غير خائفة منه، ولكنها كانت في الحقيقة ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها. فهي تعرف ما يمكن لوالدها ولمارتين أن يفعلاه بها إذا أحبطت مخططاتهما. ولكنها لن تسمح لهما بتدمير حياة امرأة أخرى، خاصة وأن الأوان لم يفت بعد.

جفلت عندما رن جرس الباب فور خروج مارتين. وراحت تفكر ما الذي نسي أن يقوله لها مارتين عندما كان موجوداً؟

أحست الارتياح حين فتحت الباب ورأت ماركوس. حيّته بحرارة، وكادت ترتمي بين ذراعيه من شدة التأثر:

ـ أوه، ماركوس!

أمسك بها وضمها إلى صدره وقال والقلق بادٍ عليه:

ـ ما الأمر يا بيث؟ ما الذي حدث؟

لم يكن باستطاعتها أن تخبره، وبقيت متشبثة به حتى هدأت قليلاً.

دخلا المنزل، ثم قال لها:

ـ لقد رأيت بالمر مغادراً عندما وصلت. هل لذلك علاقة بما أنت عليه الآن؟

تصلبت عضلاتها وابتعدت عنه. وقالت وهي تتصنع الدهشة:

ـ مارتين بالمر؟

أمعن ماركوس النظر إليها وأجاب: «نعم».

ـ هل رآك؟

ـ لقد تبادلنا التحية فحسب.

نظر ماركوس إليها مستفهماً:

ـ ما الذي كان يريده يا بيث؟

ما عساها تجيب؟ إن كذبت مرة أخرى حول علاقتها بمارتين، فستجلب لنفسها المتاعب. فمعظم الحاضرين في حفلة الليلة الماضية

يعرفون أنها ومارتين كانا متزوجين ولا يحتاج الأمر غير تعليق عابر، ليعلم ماركوس هذه الحقيقة أيضاً.

بللت شفتيها الجافتين وقالت:

ـ ماركوس، ثمة شيء يجب أن تعرفه...

ترددت في متابعة الكلام وهي تبحث عن الكلمات المناسبة.

راقب حركاتها الانفعالية وحثها على المضي في الكلام: «نعم؟».

ـ مارتين هو... كان....

لاحظ ماركوس ترددها وارتباكها، فحثها مرة ثانية: «نعم؟».

ـ لقد سألتني ليلة البارحة إن كنت قد استعدت اسم عائلتي الأصلي بعد الطلاق.

رد باستخفاف:

ـ ولكنك على حق، فالكثيرات من النساء يفعلن ذلك. من السخف أن يستمر المرء بالغلطة التي ارتكبها، ويدفع ثمنها!

من الواضح أنه واصل التفكير في هذه المسألة منذ ليلة البارحة! هذا أمر مطمئن، ولكنه لا يسهّل اقرارها بالحقيقة.

ابتلعت بصعوبة واستطردت:

ـ الأمر هو... أعني أنني لم أفعل. أنا لم أستعد اسم عائلتي الأصلي، لأنني لم أغير اسم عائلتي أصلاً.

تجهم ماركوس لأنه لم يفهم شيئاً من شرحها الغامض.

ترددت بيث مرة أخرى ثم تنهدت:

ـ عندما تزوجت، كان زوجي هو الذي بدل اسم عائلته، وليس العكس!.

أخيراً استطاعت النطق بالحقيقة.

نظر إليها مستفهماً، ثم هز رأسه وكأنه لم يستوعب ما قالته وبدأ

يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وينظر إليها من حين لآخر، ثم انقبضت أسارير وجهه وبدا غارقاً في التفكير.

باتت بيث على وشك الانهيار، ولم تعد تحتمل التوتر النفسي الّذي شعرت به. لكن كان يجب أن تبوح له بذلك وتكون صادقة مع نفسها ومعه.

جمد ماركوس في مكانه فجأة وقال ببطء:

ـ مارتين بالمر هو زوجك.

فصحّحت له بحدة: «كان زوجي!».

ردد كلامها بنبرة جافة، ولم تظهر على وجهه أي تعابير تنم عما يدور داخل رأسه، من جراء هذا الاعتراف.

اندفعت بيث في الكلام عندما لاحظت سكوته:

ـ أخبرك مارتين أن ما من قرابة بيننا، وهذا صحيح! ولكن بعد ذلك وجدت صعوبة بالغة لأقول لك بصراحة أننا كنا متزوجين!

رد ماركوس وهو يصر على أسنانه:

ـ كانت علاقتك به حميمة.

أقرّت له:

ـ ربما عندما يكون الزواج ناجحاً، ولكن زواجنا لم يكن كذلك!

ـ ولم جاء هذا الصباح؟

هذا أمر آخر تفضل ألاّ تخبره به، لأن الاعتراف بالحقيقة يبدو أكثر تعقيداً من تجنبها.

ـ لم ينته زواجنا على خير، وليلة البارحة كانت المرة الأولى التي نلتقي بها منذ فترة طويلة.

حدق إليها يستحثها على المتابعة: «وماذا أيضاً؟».

هزت رأسها وقالت:

ـ لقد جاء هذا الصباح لأنه يظن أن هنالك بعض الأمور العالقة

التي يجب أن نبحث فيها.

ـ وهل فعلتما؟

ـ لا!

قال ماركوس بتجهم:

ـ أذكر أنه كان برفقة خطيبته في الحفل.

أومأت بيث رأسها بانفعال:

ـ هذا صحيح، لقد كان مع خطيبته!

قال ببطء:

ـ امرأة شابة تضيء نجوم الحب عينيها. الشابة ذاتها التي جيء على ذكرها في المخابرة التي تلقيتها في البندقية.

نسيت بيث أن الورقة لا تزال معه، فعلا الاحمرار وجهها عندما أدركت كيف بدت ردة فعلها على هذا الخبر. ماذا سيفكر ماركوس الآن؟

غمغم ماركوس وهو غارق في التفكير!

ـ أقرّ بأنني لم أربط الأشياء ببعضها ليلة أمس. لماذا يدفعك اعلان خطوبة زوجك السابق إلى امرأة أخرى للرجوع إلى انكلترا على وجه السرعة، بهذه الطريقة؟

تنهدت وهي تتمنى في سرّها لو لم يطّلع على تلك الورقة:

ـ كان الأمر مفاجأة.

ـ لماذا؟

لم تكن تنوي الإفصاح لماركوس عما تنوي فعله ولكنها لم تكن لتحتمل ما يفكر به ماركوس الآن حيال ردة فعلها.

ألح ماركوس في طلب الجواب:

ـ لماذا كان هنا اليوم يا بيث؟ ألم ينته الأمر بينكما؟

ردت عليه بتعنيف:

ـ لقد انتهى كل شيء، لكنني أرى أنه من واجبي تحذير بريندا!

هز ماركوس رأسه: «لقد فهمت!».

عبست بيث وهي غير متأكدة من أنه فهم أي شيء: «حقاً؟».

صاح بها:

ـ أعتقد ذلك. أتعرفين أن الشكوك بدأت تساورني حول الأشياء التي سمعتها عنك...

نظرت إليه بذهول وقالت: «أي أشياء؟ عمّ تتحدث؟».

ـ لا يهم...

ألحّت عليه: «الأمر مهم بالنسبة لي! ما الذي سمعته عني وممن؟».

صرّ ماركوس أسنانه وقال ببرودة:

ـ لقد قلت لك إن الأمر لا يهم. ولكن من الواضح أنك شابة فاسدة كما أخبروني، إن كنت تشعربن بالرغبة في الانتقام من زوجك السابق، وعلى استعداد لتحطيم علاقته الجديدة. بدأت أفهم ما قصدته من ثرثرة نسائية حول فنجان قهوة.

شحب لون بيث من هذا الهجوم غير المتوقع:

ـ أردت التحدث مع بريندا، نعم...

حدّق إليها وعيناه تلمعان بالغضب:

ـ ومن الواضح أن بالمر يعرف تماماً ما تودّين قوله لها. ربما ما يدفعك للقيام بذلك هو الغيرة. هل أنت نادمة على طلاقك منه؟

ـ لا، أنا...

لم يصغ إليها، وهز برأسه متابعاً:

ـ لم أستطع أن أصدق أنني كنت غبياً إلى درجة أنني بدأت فعلاً أغيّر نظرتي بك. لن أرضي غرورك واعترف لك بأنني فعلاً بدأت أهتم لأمرك، لأنني أدرك الآن مغزى ألاعيبك الصغيرة...

ردّدت بيث بذهول: «ألاعيب» أي ألاعيب؟».

صر ماركوس على أسنانه قائلاً:

- أتعرفين أنها كادت تنجح، لا أستطيع أن أصدق كم كنت غبياً!

شدها بخشونة بين ذراعيه عقاباً لها، ثم أبعدها عنه فجأة، ونظر إليها بازدراء قبل أن يستدير على عقبيه ويندفع مثل العاصفة خارجاً من شقتها.

انهارت بيث ببطء على الأرض، إذ لم يعد باستطاعتها أن تقف على قدميها...

* * *

٩ - الحب جنون

ابتسمت مديرة المنزل بتهذيب لـ بيث فيما كانت تشير لها بأن تتبعها إلى صالون الاستقبال:

- سيقابلك السيد كارليسلي الآن.

لم يكن قدوم بيث إلى هنا هذه الأمسية أمراً سهلاً عليها، ولكنها اتصلت بـ بريندا عدة مرات وحاولت التحادث معها، لكن الفتاة استمرت ترفض حتى الرد على المخابرات. شعرت بيث أنه لم يعد أمامها غير الاتصال مباشرة بـ شين كارليسلي.

كانت تعرف شين بالطبع. ذاك الرجل الاسكتلندي المخادع بامتياز، بشعره الأحمر وابتسامته القادرة على بث الطمأنينة في قلوب منافسيه. ولكنه لم يكن شريك والدها عن عبث، فإذا استطاع المحافظة على موقعه هذا دون أن يضحي بمبادئه، فهذا يعني أنه يستطيع أن يقدم على أي شيء آخر.

بدا محرجاً قليلاً عندما دخلت عليه وعبرت الغرفة لتصافحه. حيّاها قائلاً:

- يسرني أن أراك ثانية يا بيث!

- حقاً؟

- أنت ابنة تشارلز، ويسعدني بالطبع أن أراك.. غير أنني أجهل تماماً الداعي لزيارتك هذه، ولكن...

ـ لست ابنة تشارلز فقط، بل كنت زوجة مارتين أيضاً!

ـ نعم.

كشرت بيث وقالت:

ـ هذا ما كنت تخشاه، أنا آسفة لذلك.

ابتسم لها:

ـ أنا لست آسفاً. إجلسي، سأطلب القهوة لنشربها معاً.

رن الجرس القريب من مدفأة الحائط، لتدخل الخادمة بعد بضع ثوان.

صبت القهوة وهي تقول:

ـ أعتقد أنه لا يجب أن تسمح بزواج بريندا من مارتين.

رفع حاجبيه الداكنين والتمعت عيناه:

ـ هذه صراحة متناهية!

ـ أنا آسفة، ولكنني لا أعرف كيف أقول ذلك بأسلوب آخر.

قال وهو يلوح بيده دلالة على عدم اهتمام:

ـ أوه، أنا لا أتذمر. والصراحة يجب أن تُشجّع لا أن تُقمع.

أخبرته بحسرة:

ـ أرجو أن يبقى هذا رأيك عندما يحين موعد ذهابي.

حثها بلطف:

ـ أخبريني بما جئت لتقوليه، ودعي القرار لي.

أخبرته بيث بكل شيء، وأنصت شين من دون أن يبدو عليه أي انفعال.

وساعدها صمته على المضي في الكلام من دون أن تتغلب عليها الانفعالات. ولكن حين قالت كل ما عندها، كانت ترتعش بشدة.

بادرها شين بالكلام بعدما صمتت لثوانٍ عدة:

ـ ما رأيك لو أخبرتك بأن لا شيء فاجأني مما جئت على ذكره

الآن.

ابتلعت بيث ريقها بصعوبة:

ـ لماذا تدع ابنتك إذاً تتزوج مارتين؟.

فمن المؤكد أن ما من أب يدع ابنته تقع في مثل الزواج عمداً... والدها فعل ذلك! ولكن شين مختلف عن والدها في كل شيء ـ هل هو...

قطب وجهه بحسرة:

ـ لمَ لا أنادي بريندا وندعها تشرح ذلك بنفسها؟

بدت بيث مذهولة:

ـ هل تقول إن بريندا تعرف كل شيء أيضاً؟

رد شين متهكماً وهو يتأهب للذهاب بنفسه واحضارها بدلاً من ارسال الخادمة:

ـ سأناديها!

حاولت بيث استجماع أفكارها. شين وبريندا يعرفان بالفعل أي نوع من الرجال هو مارتين، وهذه الشابة لا تزال تنوي الزواج منه؟ هذا لا يصدق!

بدت بريندا نضرة وجميلة تماماً كما في الحفلة منذ أسبوع ولكن نظرتها كانت مختلفة هذه الأمسية. ورأت بيث في أعماقها نضوجاً لم تلاحظه قط من قبل. على أي حال، لم تبدُ بريندا كمراهقة بريئة منبهرة بوميض الحب الآن.

قالت بخفة وهي ترمي بنفسها على أحد المقاعد:

ـ قال لي أبي إنك جئت لتحذريني من الزواج بـ مارتين.

لا، لا وجود حتماً للبراءة اليوم. تساءلت بيث فيما إذا كان مارتين يعرف أنه ربط لبوة بأذياله. يا إلهي، من الممكن أن يكونا مناسبين لبعضهما تماماً. أليس ذلك مضحكاً؟.

قالت بيث ساخرة من نفسها:

ـ هل يجب أن أتكبد عناء ذلك؟

هزت بريندا كتفيها بحسرة:

ـ في الحقيقة لا، لأنني أحبه لا بل أحبه كثيراً. لقد أحببته منذ أن كنت في الخامسة عشرة، غير أنه تزوج بك لأنه كان يعتقد أنني طفلة، ولم أستطع أن أصدق حسن حظي، حين انفصلتما عن بعضكما بعد تلك الفترة الوجيزة.

ثم أردفت دون ابداء أي حقد أو خبث، مقتصرة فقط على سرد الحقائق كما هي:

ـ كنت لا أزال أحبّه، ولم يتغيّر أي شيء بالنسبة لي.

ـ أنا أرى ذلك. لكن يصعب علي الفهم!.

ـ أنا لست مثلك يا بيث. عيناي مفتوحتان تماماً، وأعرف من هو مارتين.

قالت وقد أذهلها هذا الاعتراف: «ومع ذلك تحبينه!».

ابتسمت بريندا وقالت:

ـ نعم وسأجيب أخيراً على سؤالك تلك الليلة يا بيث. نعم، أنا أعرف بأمر كلويه وأعرف أيضاً أنها ستخرج من حياته حالما نتزوج. وسيتعجب مارتين من كيفية حدوث ذلك. سينجح زواجنا يا بيث وبشروطي أنا!

تكلمت بثقة تامة، وأدركت بيث أنه من المحتمل أن تكون محقة لأنها تحصل على دعم والدها.

هزت بيث رأسها بحسرة:

ـ لقد بدأت أشعر تقريباً بالشفقة على مارتين!

ضحكت بريندا، وبدت جميلة جداً، وغير قلقة بتاتاً على مستقبلها:

ـ تقريباً فقط؟.

سوف تتمكن من الإمساك بزمام الأمور. شعرت بيث بالقنوط من هذه الزيارة، وتملكها إحساس بأنها ربما تغادر المكان بمعنويات مرتفعة، وبشعور بالانفراج.

أقرت بنبرة جافة:

ـ نعم، تقريباً فقط. هل أنت فعلاً متأكدة من رغبتك في المضي بذلك يا بريندا؟ مارتين لن يتغير أبداً، كما تعرفين! لقد جاء يحذرني يوم الأحد الفائت بعدم التكلم معك ثانية.

ردت بريندا بلطف:

ـ هذا ليس ما دفعني إلى عدم تلقي مخابراتك الهاتفية. جلّ ما في الأمر أنني أعتقد أنه من الأسهل على الجميع لو بقينا بعيدتين الواحدة عن الأخرى.

نهضت وهي تتابع كلامها:

ـ ما زلت أعتقد أن هذه هي الطريقة الفضلى لمعالجة هذا الوضع، فأنا لا أرى بالفعل أي شيء آخر يمكننا التحدث به. كما أنني لا أريد قطعاً مقارنة زواجي بزواجك!

ردت بيث باستياء:

ـ ولا أنا أيضاً!

أومأت بريندا برأسها:

ـ إذن من الأفضل أن أذهب وأستعد فسوف أقابل مارتين.

راقبتها بيث وهي تخرج من الغرفة، وهي تشعر بدوار وتتساءل في نفسها كيف تمضي امرأة ناضجة في الزواج من رجل تعرف أنه غير جدير بالثقة.

هزت رأسها وقالت:

ـ إن كانت بريندا تخدع نفسها وتعتقد حقاً أن باستطاعتها

تغييره. . .

أكد لها شين بصوت أجش:

ـ إنها لا تفعل ذلك، إنها تحبه مثلما يحبها. أنا، أفضّل أن أناسب صهراً غيره، ولكن هذا من تريده بريندا. . .

وما تريده بريندا تحصل عليه. وساور بيث شعور بأن مارتين سيتلقى عدة صدمات في السنوات اللاحقة.

أكد شين لها بوجه عابس:

ـ سيكون الأمر مختلفاً مع بريندا. أعرف تماماً ما الذي يسعى مارتين إليه، وأعرف كيف أتعامل معه. لا تقلقي يا بيث، لن يحصل على أي شيء من زواجه بابنتي.

كان باستطاعتها أن ترى ذلك، وتملكها شعور بالارتياح، وكأن المسؤولية برمتها أزيحت عن كاهلها. لم يعد هنالك ما تقوله!

نهضت بيث وقالت بخفة:

ـ يبدو أنه ليس هنالك المزيد لأقوله!

نهض شين بدوره وهو يبتسم متحسراً:

ـ لا، ولكنني فعلاً أشكرك يا بيث على اهتمامك، أعرف أنه لم يكن من السهل عليك المجيء إلى هنا والتحدث بهذا الموضوع!

ـ خاصة عندما يتبين أن ذلك لم يكن ضرورياً!.

ابتسم لها بلطف:

ـ والدك غبي، وقد قلت له ذلك مرات عدة.

ـ وأنا متأكدة أن ذلك أعجبه!

قال شين مستخفاً:

ـ لم أهتم قط فيما إن كان ذلك يعجبه أم لا. أول عمل غبي قام به هو انفصاله عن أمك. وفي كل مرة يقابلها كان يزيد الأمور تعقيداً بتصرفاته الحمقاء. هل تعرفين أنه لا يزال يحبها؟

ألقت نظرة ذهول إليه غير مصدقة.

هز شين رأسه:

ـ إنه حقاً لا يزال يحبها. لكن مشكلته الوحيدة في علاقته مع أمك هي طموحه واندفاعه المهووس، وهو يضحي حتى بالأشخاص الذين يحبهم لغاياته.

ردّت بيث وهي تتذكر ما فعله بها:

ـ أنا أعرف ذلك أكثر من أي شخص آخر.

تنهد شين وقال:

ـ هو الخاسر! لكنه سيبقى هكذا على الدوام، خاصة في وجود أشخاص مثل مارتين. لكن لا يجب أن تشغلي بالك بهذا الوضع أكثر من ذلك يا عزيزتي.

غادرت منزل شين كارليسلي للقاء أمها على العشاء، مع أنها كانت لا تزال مضطربة قليلاً من الاجتماع مع الأب والابنة.

علقت أمها عندما سردت بيث كل ما جرى من حديث بينها بين شين وابنته:

ـ كانت دائماً فتاة وقحة أفسدها الدلال. لقد اعتقدت أن المدرسة الداخلية في سويسرا قد غيرت من أخلاقها!

ردت بيث بتحسر:

ـ بدلاً عن ذلك، كانت وداعتها الظاهرية شركاً للإيقاع بـ مارتين.

قالت أمها بشعور من الرضى:

ـ يبدو لي أن هذا ما يستحقه، والطيور على أشكالها تقع!

أومأت بيث برأسها:

ـ يبدوان مناسبين. أرجو فقط ألاّ يكون مصير بريندا مشابهاً لمصيري.

هزت أمها رأسها وقالت:

ـ أشك بذلك! سوف ترين أنهما بعد عشرين سنة من الآن، سيبقيان متزوجين، الأمر الذي سيحير مارتين تماماً.

ارتسمت في مخيلة بيث صورة مضحكة، ما دفعها إلى الابتسام.

استحسنت كاترين ظهور البسمة على محيا بيث وقالت:

ـ هذا أفضل! لقد قلقت جداً عليك في الأيام القليلة الماضية!

ثم أمعنت النظر في بيث وسألتها!

ـ هل حدث أمرٌ أزعجك؟.

لم ترَ بيث ماركوس منذ الصباح الذي تلا الحفل حين أخبرته الحقيقة عن مارتين ونعتها بتلك الصفات المعيبة. تكلم ماركوس معها وكأن أحداً قد حذره منها، ولم تستطع أن تفكر بمن قد يقدم على ذلك غير مارتين ووالدها.

لم تكن بيث تعرف أين يقيم في لندن، ولم تكن تنوي أن تحرج نفسها وتسأل آل ترينت عن رقم هاتفه. لذا، بقي الوضع على حاله.

سألتها أمها بعد صمتها الطويل:

ـ بيث؟ ألم تسمعي أي شيء من ماركوس؟ أهو المشكلة التي تعانين منها؟

لم تشأ أن تخبرها بالإهانة التي تلقتها، فأجابت بحدّة:

ـ طبعاً لا!

ـ هل أنت متأكدة؟

ردت بعنف على هذا التطفل اللطيف:

ـ متأكدة تماماً! أنا.. إنه من طينة تشارلز ولن أشعر بالارتياح معه أبداً!

ومع ذلك كانت تستمتع بصحبته، وتعي أنها في طريقها للوقوع في حبه.

عبست أمها لهذا الرد العنيف وقالت ببطء:

ـ لا أظن أنه يشبه والدك على الاطلاق. صحيح أنه قدير ومعتد بنفسه، ولكن لا أعتقد أنه شريرٌ قاسٍ!

ثم تمتمت أمها: «أذكري الذئب و...».

رفعت بيث نظرها ونظرت إلى حيث كانت تنظر أمها في المطعم.

دخل ماركوس المطعم برفقة شاب صغير السن، يشبهه كثيراً. لم يذكر لها ماركوس أن لديه أخاً. أمن المحتمل أن يكون ابنه؟ هذا افتراض ممكن لم تفكر به قط من قبل. ماذا لو مني ماركوس بزواج فاشل...

همست أمها: «إنه يتجه نحونا».

يا لله، ما الذي يفترض أن تفعله الآن؟ فمن الصعوبة أن يتصرفا بتهذيب مع بعضهما البعض، بعد الطريقة المهينة التي عاملها بها يوم الأحد.

حيّا أمها بتهذيب أولاً، ثم تحول لالقاء التحية على بيث بنبرة باردة بوضوح.

ترددت في النظر إليه، وشعرت بأنفاسها تتقطع من وسامته في بذلة السهرة السوداء. يا إلهي، كم هو جذاب! كيف استطاعت أن تقاومه في أجواء السحر الإيطالية؟ ولكنها فشلت في مقاومته في النهاية. علا الاحمرار وجهها، وهي ترد له التحية بصوت منخفض.

ـ ماركوس!

رفع حاجبيه الداكنين.

ـ هل أنتما على وشك الذهاب أم تفضلان أن أتناول الطعام في مكان آخر؟

سمعت بيث أمها تشهق من سماعها هذا الكلام، ولكنها استمرت بالتحديق إلى ماركوس.

ـ لسنا على أهبة الذهاب، ولم يمضِ على مجيئنا وقت طويل. يمكنك أن تتناول طعامك أينما شئت.

نطقت جملتها الأخيرة بعدوانية وكأنها فقدت السيطرة على انفعالاتها. هل كان مضطراً أن يوضح أنه يفضل حتى ألاّ يتناولا الطعام في المطعم نفسه؟.

ـ كاترين؟

نظرت إليه أمها والحيرة تتملكها تماماً من مجرى هذا الحديث:

ـ خذ حريتك.

ـ حسناً!

التفت نحو بيث:

ـ إذا كنت لا تجدين في ذلك أي احراج؟

ردت: «ولمَ يجب أن أشعر بالإحراج؟»

قال ماركوس متشدقاً:

ـ إذا كنت متأكدة من ذلك، سأفعل. يبدو أن روس بدأ صبره ينفذ بانتظار وجبة الطعام التي سيلتهمها.

انتفضت بيث:

ـ إذن من الأفضل أن تذهب وتطعمه، ألم تصطحبه إلى هنا من أجل ذلك؟

ـ تعجبني جرأتك!.

ـ فعلاً!

أومأ برأسه:

ـ لم يقل لي أحد إنك تملكين الجرأة والشجاعة؟

هزت بيث كتفيها استخفافاً، ولكنها كانت تهتز بداخلها، غير

أنها عزمت على ألاّ تظهر ذلك.

وقالت له بسخرية خشنة:

ـ ربما لم تكن مصادرك موثوقة!

تجاوزته بنظراتها إلى رفيقه النافذ الصبر، وقد بدأ يبدو على الشاب الانزعاج الشديد من الانتظار فقالت لـ ماركوس:

ـ لا تدعنا نؤخرك!

ابتسم قليلاً وقال:

ـ سررت لرؤيتك ثانيةً يا كاترين!

تعمد أن يغفل ذكر اسم بيث، وكان ذلك ظاهراً بوضوح.

كان آخر ما ترغب به بيث الآن هو تناول الطعام في هذا المطعم. ولكنها لن تغادر قبل أن يفعل ذلك، حتى ولو لم تستمتع بتناول كل لقمة تضعها في فمها!

ظهر أن أمها متكدرة جداً من المواجهة التي جرت بين ماركوس وابنتها:

ـ ما كل هذا يا بيث؟

هزت كتفيها استخفافاً، وهي عاجزة عن النظر إلى أمها الّتي كانت تحدّق إليها:

ـ لا أعرف، ولا أعتقد أن ماركوس سيلحق بي إلى أي مكان في المستقبل.

ـ بيث...

قاطعت بيث أمها وهي تحاول تمالك نفسها بصعوبة:

ـ هلاّ نسينا هذا الموضوع الآن، يا ماما، واستمتعنا بطعامنا؟

شعرت بيث بنظراته شاخصة عليها لكنها لم تكن تلك التي رمقها بها في إيطاليا! صممت على ألاّ تنظر إليه لأنها شعرت بأنها ستنهار إذا ما فعلت ذلك. لقد وقعت في حبه!.

أقسمت ألاّ تقع في الحب ثانية، وتعلمت بعد أن دفعت الثمن، كم أن الوقوع في هوى رجل مؤلم، وها هي الآن تقع في حب رجل آخر لا يناسبها! بدا لها أن ماركوس يكرهها فعلاً، لا بل يحتقرها!

ولكنها أحبت ماركوس أكثر مما أحبت مارتين، وحبها له مبني على الخبرة والمعاناة التي لم يخطر لها قط أنها ستمر بها.

ليس من الإنصاف أن تقع في الحب الطائش مرة أخرى. ولكن ماركوس واظب على فرض نفسه في حياتها، إلى درجة أنه لم يعد باستطاعتها تجاهله. والآن، لم يعد يرغب حتى في معرفتها...

نظرت أمها إليها بقلق وكان الاضطراب ظاهراً على وجه بيث، رغم كل الجهود التي بذلتها لإخفاء ذلك وسألتها:

ـ هل أنت متأكدة من أنك على ما يرام يا حبيبتي؟.

فابتسمت بيث بعضلات مشدودة، وقالت وهي تطوي فوطة الطعام وتضعها على الطاولة:

ـ هل نذهب؟

ردت أمها عابسة:

ـ هل تريدين أن أتكلم مع ماركوس؟...

ـ لا! لا!

رددت ذلك بصوت مسموع ولاحظت أنها استرعت انتباه بعض الحاضرين، وكان ماركوس من ضمنهم. على الأرجح أنه يظن الآن أنها مصابة بنوبة هستيرية.

لسوء الحظ كانتا مضطرتين للمرور بمحاذاة الطاولة التي يجلس إليها الرجلان، للخروج من المطعم. ولو حاولتا اتخاذ أي طريق آخر سيكون واضحاً أنهما تتعمدان تجنبهما. ولم تشأ بيث أن ترضي غرور ماركوس بهذا التصرف.

نظر ماركوس إليها ببرود عندما أصبحتا بموازاة طاولته، بينما

ألقى إليها الشاب الذي برفقته نظرة إعجاب. لم تترك التعابير التي بانت على وجهه أي مجال للتخيل. لعل ماركوس أخبره أنها قد ترحب بجذب الاهتمام! مع أن النظرات التي ألقاها ناحية الشاب بدت غير محبّذة لهذا الاهتمام الذي خص به بيث.

أثارت ردة فعله في نفسها روح القتال. فتوقفت عمداً إلى جانب طاولته ونظرت إلى الشاب وهي تبتسم له بإغراء. ثم وجهّت الكلام إلى ماركوس بصوت تعمدت أن يكون مثيراً:

ـ لم تعرّفنا على صديقك!

بدا ماركوس مندهشاً.

ـ إنه ابن أختي!

تصنعت الدهشة رغم أن الشبه بينهما كان واضحاً منذ البداية:

ـ حقاً؟ لا يبدو أن هنالك شبه بينكما!.

ألقت نظرات دافئة إلى الشاب، وقالت متجنبة النظر إلى ماركوس وعيناها تلمعان مثل عيني الهرة، ووجنتاها متوردتان:

ـ سررت بالتعرف إليك يا سيد غريفين!

ثم غادرت المطعم شامخة الرأس وإلى جانبها أمها.

غمغمت أمها:

ـ كان تصرفك جيداً جداً يا حبيبتي، ومؤثراً جداً! ولكن لن يجلب لك الدفء في الليل!

ـ ولن يجلب الدفء لماركوس أيضاً!

شعرت أن قواها النفسية استنزفت، الأمر الذي راعته أمها طوال طريق عودتهما إلى شقتها.

عرضت عليها أمها بلطف بعدما ركنت السيارة:

ـ هل ترغبين في أن أصعد معك؟

رفضت بتثاقل لحاجتها إلى الاختلاء بنفسها!

ـ لا!

كان غضبها من ماركوس هو المهيمن على عواطفها عندما قرع جرس الباب، وحين فتحته شاهدت ماركوس يقف أمامها. صاحت به:

ـ ما الذي جاء بك؟ هل جئت لتلقي عليّ المزيد من الاهانات؟

وقفت عند الباب لتمنع عليه الدخول.

قال وهو يصرّ على أسنانه: «يجب أن أتحدث معك!».

رفعت حاجبيها وقالت:

ـ ليس هذا الانطباع الذي أعطيتني إياه من قبل.

هز رأسه قائلاً:

ـ كنت من قبل... يجب أن أتكلم معك يا بيث الآن!

ـ لا أظن أن هنالك من داعٍ لأتكلم معك!..

قال بصوت هادىء وحازم أسكتها:

ـ بيث، لقد التقيت الليلة الرجل الذي تمّ الإدعاء عليه في قضية طلاقك كشريك لك. ولم يقتصر الأمر على عدم تعرفك عليه، بل أيضاً عدم تعرفه عليك، وأطلقت عليه الاسم غير الصحيح. الشخص الّذي كان معي لم يكن ابن أختي فحسب، بل هو روس بنتلي، الرجل الذي يفترض أنه شريك في قضية الخيانة الزوجية، ومع هذا أنتما حتى لا تعرفان بعضكما البعض. والآن أريد أن أعرف كل ما جرى وما يجري.

* * *

١٠ ـ هل يصدّقها

ابتلعت بيث ريقها بصعوبة. أذاك هو الشاب الأرعن، الذي دفع له مارتين ليشهد ضدها بالزور؟

صرفته عن الحديث بتأنيب ومئات الأفكار تتضارب في ذهنها. كانت من الصدمة بحيث لم تستطع تنظيم أفكارها:

ـ لمَ لا تذهب وتسأله عما جرى ويجري؟

صاح بها ماركوس:

ـ لأنني أسألك أنت بالذات. وأنا لا أصدّق أي شيء يقوله روس.

تيقنت الآن أن روس هو المخبر:

ـ لم يبدُ أنك وجدت صعوبة في الإصغاء إليه من قبل!

تجهّم وجه ماركوس وقال:

ـ وأنا أريد الآن الاستماع إلى ما عندك.

شمخت رأسها وقالت ساخرة:

ـ وكيف ستعرف أنني أقول الحقيقة؟

هز رأسه:

ـ اللعنة! أنا أعرف تماماً أن روس لم يقل الحقيقة!

تنهدت بيث وتراجعت خطوة ودعته للدخول بنبرة كليلة:

- إذن تفضل!

لم تستوعب الوضع تماماً. منذ متى يعرف ماركوس أنه ادعُي على ابن أخته في قضية طلاقها؟ وهل لذلك علاقة في لقائهما بالمقام الأول، وما تبع ذلك؟ ألهذا السبب لم يكن أي من لقاءاتهما محض صدفة؟

التفتت إلى ماركوس وقالت بجفاء:

- ربما من الأفضل أن تخبرني بما تعرف أو بما تظن أنك تعرف.

تنفس ماركوس بعمق ودس يديه في جيبي سرواله:

- لدي شعور أن ما سأقوله لن يعجبك.

ردت بغمغمة:

- أنا متأكدة أنه لن يعجبني، ولكن يجب أن يقال كل شيء.

أومأ برأسه وقال:

- حسناً. لقد أخبرتك أنني أمضيت السنتين الأخيرتين في أمريكا.

ردت عليه بنبرة جافة:

- هذا صحيح، لقد ذكرت ذلك!

قطب وجهه وقال:

- يبدو أنه خلال اقامتي هناك، أهملت واجباتي كوصي على ابن أختي روس.

قالت بيث بعبوس: «يبدو شاباً طائشاً!».

لوى ماركوس فمه:

- لم يتجاوز روس العشرين من العمر، ولكنه يتصرف وكأنه أكبر عمراً. ولهذا السبب، عندما لفت انتباهي لما يجري، استفظعت الأمر والادعاء عليه لاحقاً في قضية امرأة تكبره بعدة سنوات.

أدركت بيث ما يقصده، بعدم تصديق:

- أتعنيني أنا؟

أخذ ماركوس يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، وقال:

- عندما ألحيّت على روس أن يخبرني عن علاقته معك، أخبرني أنك رشوته ليتقدم كمدع عليه ثانٍ، كون علاقتكما انتهت، وأنك كنت على استعداد للقيام بأي شيء لتتخلصي من زوجك الذي مللت منه.

فصاحت: «هذا كذب وافتراء!».

توسل إليها بلطف:

- دعيني أنهي كلامي يا بيث! وبعد ذلك، يمكنك أن تخبريني بما حدث.

قذفته بنبرة لاذعة رداً على ما يقول:

- كم أنت لطيف!

بدت معالم المعاناة على وجهه:

- بيث، هذا ليس سهلاً علي أيضاً... ليس سهلاً أبداً أن يدرك المرء مدى الغباوة التي شابت تصرفاته.

- هذا غير ممكن!

- روس شاب ثري جداً...

قاطعته بحدة:

- إذن لماذا يأخذ الرشوة التي دفعها له زوجي السابق، لكي اتهم بالخيانة الزوجية معه إن كان لا يحتاج أساساً إلى المال...

- أنا الوصي على روس، وأنا أسمح له بالتصرف بثروته عندما يبلغ الواحدة والعشرين أو الخامسة والعشرين من العمر. كان يأخذ مصروفه دائماً خلال السنوات الثلاث الأخيرة، منذ أن قتلت شقيقتي وزوجها في حادث طائرة، ولكن يبدو أنه كان يعيش أسلوب حياة يفوق قيمة مصروفه، ولذلك وقع في الدين ولم يجرؤ على اخباري

بذلك. لقد تعرف إلى شلة من الرجال الذين يكبرونه سناً فاستغلّوه.

قالت بيث وهي ترى الصورة بشكل أوضح:

ـ شلة مارتين!

أكدّ لها:

ـ يبدو الأمر كذلك. وعندما استحقت ديونه، اعترف لي أنه قبل أن يأخذ المال منت بمساعدتك في التخلص من زوجك.

ـ لم أطلّق مارتين، بل هو الذي طلقني، بالشهادة الزور التي وفرها له روس!

هز ماركوس رأسه بامتعاض وقال:

ـ لم يكن لدي أي سبب حينها يدفعني إلى عدم الأخذ بصحة كلام روس. حتى حقيقة أن برادشو اتخذ اسم عائلتك بدلاً عن اسمه، بدت أنها تؤكد بأنك كنت...

أنهت بيث الجملة عنه:

ـ فاسقه صغيرة أفسدها الدلال، لكن اعلم أن هذا التبديل لم يكن فكرتي!.

ـ لست فخوراً بدوري في هذا الشأن!

نظرت إليه بامعان:

ـ أخبرني بالضبط ما كان دورك في كل ما جرى؟ أخبرني بالضبط لما لحقت بي إلى ايطاليا؟

اعترف لها بصوت خشن:

ـ لكي أقابل المرأة التي كانت مصممة جداً على التخلص من زوجها، التي ضجرت منه بحيث أنها كانت مستعدة لترشي شخصاً ما ليذهب إلى المحكمة ويسيء إلى سمعته وسمعتها من أجل الوصول إلى غايتها.

ـ ماذا أيضاً؟

ـ وبدلاً من ذلك قابلت امرأة رائعة الجمال، جعلتني أرغب بأن أحيطها وأحميها من العالم كله! لقد ذهبت إلى فيرونا بعدما اكتشفت أنك ذهبت إلى هناك للترويح عن نفسك، وفي نيتي أن أوقعكِ في علاقة عابرة. بدلاً عن ذلك انتهى بي المطاف في الوقوع كاملاً بالحيرة، بين الأمور التي أخبروني بها عنك وبين المرأة اللطيفة البالغة الرقة التي قابلتها أخيراً. ولم يكن كل هذا منطقياً!

قالت بمرارة:

ـ وهكذا ظننت أنني أقوم بألاعيب. أصدك أحياناً، وأبدو أحياناً أخرى مستمتعة بصحبتك.

بدأت تتوضح لها صورة كل شيء الآن، وكيف بدت تصرفاتها اللعينة له، في ضوء كل ما قيل له عنها.

اعترف ماركوس بتثاقل:

ـ ولم يبدُ أي شيء آخر منطقياً!

قالت بصوت أبحّ: «والآن؟».

دعاها للبوح بالحقيقة:

ـ أظن أنه من الأفضل أن أسمع الوقائع الصحيحة منك.

تنفست بيث بتقطع. لقد سعى ماركوس وراءها عمداً، وفي نيته أن يعاقبها بطريقة ما على استغلالها الأناني لابن أخته. أي شكل من العقاب كان ينوي أن ينزل بها؟ هل افترض أنها ستقع في حبه وبعد ذلك يبادر إلى التخلي عنها؟

إن كان ذلك هو مبتغاه، فلقد نجح!

تكلمت بخشونة:

ـ لا يمكنني أن أبوح بالحقيقة، فهناك أناس آخرون لهم علاقة بما حدث، أشخاص أبرياء، ما زالوا معرضين للأذية إذا انتشرت الحقيقة.

كانت تفكر بأمها، أمها المسكينة التي ما زالت تحب الرجل الذي حاول في نهاية المطاف أن يحطم حياة كل من أحبه.

بدا الوجوم على وجه ماركوس:

ـ أنا لست من العامة!

ـ وإن يكن...

كاد يتوسل إليها:

ـ أحتاج إلى معرفة الحقيقة، أريد أن أعرف التفاصيل، كلها.

لماذا؟ ما الأمر الذي قد يشكل فرقاً لديه إن عرف تفاصيل قضية طلاقها الدنيئة؟

حثها بعدما لاحظ ترددها:

ـ أنت مدينة لي، أقله بذلك!

رددت وراءه بعنف والسخط بادٍ عليها:

ـ مدينة لك؟ لست مدينة لك بأي شيء! أتتذكر أنك أنت من سعى ورائي؟

طلب منها بلطف:

ـ أرجوك، أخبريني بالحقيقة.

ـ حسناً، سأفعل!

وأخبرته دون أن تغفل ذكر أي شيء، غير أنها اضطربت عندما وصلت إلى رواية إجهاضها، وعدم قدرتها على الإنجاب ثانية.

وختمت كلامها بمرارة:

ـ أترى أنني لست من أقدَم على الألاعيب، بل أبي ومارتين.

بقي ماركوس صامتاً هادئاً، بينما كانت تخبره بكل التفاصيل، وانقبضت أسارير وجهه.

أخيراً قال باستياء:

ـ أهذا ما فعلوه بك؟

أكّدت له من دون مرارة: «نعم».

أصبحت نظراته قاسية وهو يضيف: «وروس أيضاً؟».

لوت فمها وأجابت:

ـ نعم، ولكن يبدو أنه قبض الثمن.

ـ ولكن ما قاله حول وجود... علاقة بينكما... لم يكن صحيحاً!

عنفته وهي لا تصدق أنه يسألها عن هذا الأمر:

ـ لقد أخبرتك لتوي أن القصة كاذبة. مارتين هو الرجل الأول والوحيد الذي عرفته.

تورّدت وجنتاها للشعور بالاحراج، فهذا الرجل الواقف أمامها هو الرجل الآخر الوحيد الذي أرادت أن تعرفه. وأدركت كيف أن الانجذاب إليه ضللها.

ـ تذكر كيف أنني وابن أختك لم نتعارف إلى بعضنا البعض عندما جئت إلى المطعم؟

أقرّ لها وهو يرتعش قليلاً:

ـ أنت محقة، أتدركين ما يعني ذلك؟

ردت ساخرة:

ـ أوه، نعم. هذا يعني أن أبي ومارتين حقيران!

هز ماركوس رأسه قائلاً:

ـ بل يعني أكثر من ذلك بكثير!

بدت الحيرة في عيني بيث: «ماذا تعني؟».

أمسك بكتفيها وقال:

ـ ألا ترين يا بيث؟ إن الاثبات الذي أعطي خلال النظر في قضية طلاقك مزور، والأسوأ من ذلك، أنه كان على أساس الاستفادة المادية.

دافعت عن نفسها:

ـ لقد أخبرتهم خلال النظر في القضية، أن ذلك غير صحيح. ولكن لا أحد صدقني ولا حتى المحامي الذي عيّنته لمتابعة قضيتي.

رد ماركوس بخشونة: «أصدقك!».

أجابت بتهكم:

ـ كان يمكنني الاعتماد على مساعدتك حينها، وليس بعد سنة. أما الآن فلا أشعر إلاّ بالرضى الذاتي لمعرفة أن شخصاً آخر غيري يعرف ما جرى بالضبط!

شد قبضتيه على كتفيها:

ـ ولكن يا بيث، الأمر أخطر من ذلك بكثير. لقد كذب أبوك وزوجك السابق وروس للحصول على ورقة الطلاق. وكلهم خالفوا القانون بالشهادة الزور. وأشك أن ذلك يجعل من طلاقك قانونياً!

نظرت بيث إليه بهلع قبل أن تنهار بين ذراعيه مغمىً عليها.

* * *

١١ ـ كما أنت

أصبحت بيث أخيراً امرأة حرة، تعيش حياتها دون أن تحوم حولها ظلال سوداء من الأكاذيب والخداع.

تبين أن ماركوس كان محقاً بالنسبة لقضية طلاقها، فاستمتعت بيث بالحصول على الطلاق من مارتين، وأدانت المحكمة الرجال الثلاث على شهادتهم المزوّرة. وأصبحت قصة والدها ومارتين حديث الناس، ولم يكن هناك من شك في أن الرجلين تأذيا بسبب هذه القضية، كما أدينا قانونياً. وكانت بيث تعرف أن بريندا ستقف إلى جانب مارتين وتعاضده.

إذن، لماذا لا تشعر بيث الآن بالسعادة لأن الحقيقة ظهرت في النهاية؟ لماذا تشعر بأن حياتها خاوية جداً، ولا هدف لها؟

مازحتها أمها:

ـ يفترض أن يكون الآن وقت للاحتفال يا بيث، وليس للحزن.

نظرت بيث إلى المأدبة والكأس المليء بالشراب أمامها. لا شيء من كل هذا يبدو مهماً.

شدت أمها على يدها:

ـ بيث، لقد انتهى كل شيء الآن! نال والدك جزاءه أخيراً، وقد تحررت منه ومن مارتين. وأصبح باستطاعتك أن تفعلي بحياتك ما

تشائين!

قطبت بيث جبينها لهذه الفكرة: «لست أرغب بأي شيء».

غمغمت أمها:

ـ هذا غريب! كنت أظن أن تريدين أن يملأ حياتك شخص ما.

نظرت بيث بحدة إلى أمها ثم أشاحت وجهها ثانية:

ـ لم أفهم ماذا تعنين...

أوضحت لها أمها بلطف:

ـ عزيزتي، ظهر حبك لماركوس جلياً منذ أسابيع.

تأوهت وقالت:

ـ هل هو جليٌ لماركوس أيضاً؟

تساءلت في سرها، إن كان ذلك السبب الذي دفعه لتركهما فجأة اليوم، حالما انتهت جلسة المحكمة التي قضت بطلاقها.. كان حاضراً طوال الأسابيع الماضية، ليدعمها باستمرار وهدوء. ولكن عندما انتهت الجلسات اليوم، اعتذر منهما وغادر من دون أن يقول إذا كان سيلتقيها ثانية أم لا.

هل يعني أنه قام بواجبه، ووفى مسؤولياته بصفته خال روس، أحد الرجال الثلاثة الذين سببوا لها المعاناة؟

أقرت بنفسها أنها مع مرور الأسابيع، بدأت تأمل أن يهتم بها، وليس فقط بتصحيح خطأ ارتكبه في حقها ابن أخته.

ولكنه غادرهما مبكراً، ورفض مشاركتهما الغداء، رغم دعوة بيث له.

أجابت الأم على سؤال ابنتها:

ـ لا، كلاكما استطاع أن يخفي مشاعره عن الآخر بنجاح كبير.

ـ ماذا تقصدين؟

ردت أمها برزانة: «ماركوس يحبك!».

ـ لا، هو...

أصرت أمها:

ـ بلى يا بيث، ولم تعتقدين أنه وقف إلى جانبك؟

أجابت بخفة:

ـ شعوره بالمسؤولية عما فعله روس!

ـ لقد وفى بمستلزمات هذه المسؤولية عندما وكّل لك أحد أفضل المحامين في البلد. بالمناسبة، سأتناول العشاء مع جيمس هذه الليلة.

ابتسمت بيث: «حقاً؟ أعجبت بـ جيميس هاوثورن الرجل الوسيم الخمسيني منذ البداية».

لاطفتها أمها:

ـ نعم، حتى أنني قد أصل إلى طلب الطلاق من والدك في أحد الأيام!

لا بد أن أمها معجبة جداً بـ جيمس! سرت بيث لذلك. جلّ ما كانت تتمناه هو أن تنعم أمها بالحب والسعادة في حياتها.

قالت أمها بحزم:

ـ لنعد إلى موضوعك وماركوس.

حاولت بيث صرفها عن الموضوع: «ما من موضوع بيننا... الأمر أنني وماركوس... أنا لا...».

ثابرت أمها:

ـ أنا متأكدة أن الأمر لا يتعدى كون ماركوس شهماً. لقد عانيت الكثير خلال السنة والنصف الماضية، خاصة بسبب الدور الذي لعبه ابن أخته. فكيف بإمكان ماركوس الآن أن يخبرك عن مشاعره نحوك. يجب أن تدركي أن الرجل المسكين في وضع محرج للغاية!.

ـ أنت لا تعرفين حقيقة مشاعره نحوي!...

ـ أعتقد أنه قام بما عليه عندما حلّ المشاكل القانونية التي أدخلك بها ابن أخته، ووكّل جيمس للقيام بذلك. ولكنه لم يكن مضطراً لزيارتك وقضاء الوقت معك، والمجيء إلى الجلسة اليوم. إنه رجل كثير المشاغل، ومع ذلك أمضى أسابيع...

أسكتتها بيث وهي تتحسر:

ـ حسناً يا أمي، لقد أقنعتني بأن ماركوس تجاوز حدود واجباته. ولكن ذلك لا يعني...

سألتها أمها وقد نفد صبرها:

ـ لماذا تظنين أن المسألة برمتها كانت مهمة له؟

ـ ابن أخته...

ـ أوه، اللعنة على ابن أخته!

عبست بيث من الحدة التي أظهرتها أمها: «ماما».

ـ لا يورط الرجال أمثال ماركوس أنفسهم في المسائل العائلية.

ثابرت بيث على مكابرتها:

ـ ولكن ماركوس فعل، ولهذا لحق بي إلى إيطاليا في المقام الأول.

فقدت أمها الصبر وأنّبتها:

ـ أوه، كفي عن ذلك يا بيث. لن يضرك الذهاب إلى هذا الرجل وتقديم الشكر له على ما فعل شخصياً...

ـ سبق أن شكرته آنفاً!

تنهدت أمها وبدا عليها الاستياء:

ـ هلاّ كففت عن مقاطعتي؟ متى أصبحت على هذا العناد و...

ضحكت بيث بنعومة:

ـ ... نعم أنا أعلم أنّني عنيدة. غير أنني لا أظن...

نصحتها أمها:

ـ لمرة واحدة في حياتك، كفّي عن التفكير، اتبعي أحاسيسك. اذهبي لمقابلة ماركوس، فليس هناك ما تخسرينه...

ـ وربما أفوز بكل شيء. ربما يجب أن أذهب و...

أخذت الأم الكأس التي كانت مليئة بالشراب، من يد بيث:

ـ هيا اذهبي، سأتكفل أنا بحساب المطعم.

هزت بيث رأسها بحسرة:

ـ حاولي أن تنظري إلى المرآة إذا أردت أن تعرفي ممن اكتسبت هذا العناد.

نهضت بيث فيما قطبت أمها جبينها من هذا التعليق، وقالت:

ـ سألتقي بك لاحقاً!

أجابتها أمها: «لا تستعجلي في العودة».

كان من اللطيف القول بأنها ذاهبة لملاقاة ماركوس. أوه لقد أصبحت تعرف الآن مكان اقامته في لندن، فقد زارته في شقته بضع مرات خلال الأسابيع القليلة الماضية فقط لمتابعة الإجراءات القانونية.

ابتسمت للبواب وهي على ثقة أنها ما إن تطأ المصعد، حتى يعرف ماركوس بقدومها الوشيك عبر الهاتف الداخلي في شقته.

لم تكن تملك أدنى فكرة عما ستقول له.

فتح باب الشقة قبل أن تقرع الجرس، فجرّها إلى ذراعيه وضمّها إلى صدره الصلب، فاستنشقت رائحة أثارت أحاسيسها، رائحة ماركوس ورائحة عطره.

أخذ صدره يعلو ويهبط وهو يقول:

ـ كنت على وشك اللحاق بكما إلى المطعم، رغم أنني رفضت من قبل. لقد عدت إلى الشقة وجلست، ورحت أتساءل، متى سيكون بإمكاني رؤيتك ثانية. كان التفكير في إمكانية عدم رؤيتك مرة

أخرى يقتلني ببطء. لا أستطيع أن أصدق أنك هنا، معي يا بيث.

إنه فعلاً يحبها، وأمها كانت محقة!

أمسكت بوجهه بين يديها وقالت:

ـ ماركوس، أعتقد أن كلينا تصرف بغباء شديد في الأشهر الماضية. أنا أحبك، وقد وقعت في حبك منذ الوقت الذي أمضيناه في البندقية.

اتقدت عيناه وكأنهما تستعران ناراً، واعترف لها:

ـ أعتقد أنني وقعت في حبك منذ أن رأيت دموعك في فيرونا. كنت أتوقع أن أجد امرأة قاسية ومؤذية. لكني عوضاً عن ذلك، وجدت فراشة رقيقة بدت وكأن الحياة ذاتها كانت تؤذيها. لقد كنت مريعاً في تصرفاتي معك في الليلة الأولى...

وتابع:

ـ لقد نلت جزائي، وحجتي الوحيدة هي أنني أتعامل مع امرأة من نوع مختلف تماماً. وهذا ليس عذراً! بيث، أنا...

نظرت إلى ما حولها ثم قالت بحياء:

ـ لقد أحببتك منذ أسابيع.. لم يكن مطلوباً منك غير أن تلمح لي بمشاعرك.

ـ أحبك يا بيث، وأريد أن تتزوجيني...

عبس ماركوس عندما ابتعدت عنه فجأة وكأن شيئاً ما قد لسعها، وبدا عليه التشنج:

ـ بيث، ما الأمر؟.

لعقت شفتيها:

ـ لا أستطيع أن أتزوجك يا ماركوس...

رد وهو يصر على أسنانه:

ـ أنا أدرك أن تجربتك في الزواج مع برادشو جعلتك تنفرين من

فكرة الزواج. ولكن الأمر لن يكون كذلك بيننا.

طمأنته وهي ترتعش:

ـ أعرف ذلك.

تعرف، دون شك، أن الأمر سيكون مختلفاً، ولا يمكنها إنكار انجذابها له. إلهي كم تمنت لو كان في مقدورها أن تقول نعم، ولكنها تعلم أن ذلك ليس باستطاعتها.

ـ ولكنني لا أستطيع الزواج بأحد.

بقي ماركوس على عبوسه وقد بدا مثل رجل تلقى لكمة على وجهه.

ـ لا أطلب منك أن تتزوجي أي شخص. أطلب منك أن تتزوجيني.

ـ ماركوس، لا أستطيع...

ـ لماذا؟

ابتلعت ريقها بصعوبة على نبرة سؤاله الخشنة:

ـ لقد أخبرتك عن حادثة اجهاضي، وبأنه لم يعد باستطاعتي انجاب أولاد...

أدارها بخشونة لتنظر مباشرة إلى وجهه، وأمسك ذقنها بيد ليجبرها على عدم إشاحة وجهها:

ـ هل تعتقدين أن ذلك يهمني؟ أريدك أنت، ثم من قال لك إنه باستطاعتي إنجاب الأولاد...

ـ باستطاعتك الخضوع للفحص الطبي...

ـ هل كانت مشاعرك لتتبدل لو كان الأمر عكس ذلك ووجدت أنني غير قادر على الانجاب؟ هل كنت ستكفين عن حبي؟.

توردّت وجنتاها:

ـ لا، ولكن...

ـ لا تعرقلي الأمور يا بيث. لا أريد الزواج بك فحسب. وإذا رغبنا بولد في المستقبل، فباستطاعتنا أن نتبنى واحداً...

ردت بيث بخشونة:

ـ سوف تنقلب جدتك الإيطالية في قبرها، بسبب زواجك من امرأة غير قادرة على الانجاب.

ـ هنالك الكثير من الأحفاد في العائلة، لا أفكر بزيادة عددهم. كل ما أريده هو أنت يا بيث!.

ضمها بين ذراعيه وأضاف:

ـ لم أتعود طوال حياتي أن يكون لي أولاد. لذا، لن أفتقدهم إذا قررت ألاّ تتبني أطفالاً. ولكن إذا خرجت من حياتي لأي سبب من الأسباب، فستصبح خاوية و...

أكملت عنه متفهمة ما يشعر:

ـ ... ولا معنى لها. أوه، أنا بحاجة لك يا ماركوس. يمتلكني شعور بأنني سأحتاج إليك دائماً.

ضمها بشدة إلى صدره وأخيراً تمتم بصوت متحشرج:

ـ أحبك كثيراً يا بيث.

وردت عليه دون تردد:

ـ وأنا أحبك.

وكان ذلك كل ما يهم. الحب، وماركوس، وعلاقة للعمر كله!!.

* * *